



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمه لخضر_ الوادي



قسم الحضارة الإسلامية

معهد العلوم الإسلامية

تلخيص كتاب: "أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني

مذكرة تخرج مقدمة لنيل شهادة ليسانس في: اللغة والدراسات القرآنية

تحت إشراف:

د. حمزة بوخزنة

إعداد الطلبة:

عمر طواهرية

نور الدين حمده

الصادق علوان

محمد البشير لبيض

الموسم الجامعي 2020/2019

شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

الحمد لله على فضله وكرمه، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على رسوله الكريم وبعْدُ:

إنَّنا لَنَتَوَجَّهُ بالشُّكْرِ الجَزِيلِ إلى الأُسْتاذِ الدُّكتورِ حمزة بوخرنة، والذي وافق

على أن يَكُونَ لنا مُشرفاً ومُعِيناً وناصحاً مُرشدًا، يُسَدِّدُ الرَّأْيَ وَيُصَحِّحُ

الخطأ، جزاءُ اللهِ عَنَّا كُلَّ خَيْرٍ، وَرَضِيَ عَنْهُ وَعَن وَالِدِيهِ.

كَمَا نَتَقَدَّمُ بِجَزِيلِ الشُّكْرِ والعِرْفَانِ إلى الأُساتذة الَّذِينَ لَمْ يَخْلُوا عَلَيْنَا

وساعدونا ما استطاعوا إلى المساعدة سبيلاً.

ولا يَفُوتُنَا أن نَشْكُرُ كُلَّ مَنْ مَدَّ لَنَا يَدَ العونِ أو قَدَّمَ لَنَا خِدمةً أو نصيحةً ولو

بكلمةٍ واحدةٍ تُعِينُ على إنجازِ هذا البَحْثِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي نَزَلَ الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، الذي له ملك السموات والأرض وخلق كل شيء فقدره تقديرًا، خلق الإنسان من نطفة أمشاج يبتليه فجعله سميعًا بصيرًا، ثم هداه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا، من شكر كان جزاؤه جنة وحريرًا ونعيمًا وملكًا كبيرًا، ومن كفر لم يجد له من دون الله وليًا ولا نصيرًا، نحمده تبارك وتعالى حمدًا كثيرًا، ونعوذ بنور وجهه الكريم من يوم كان شره مستطيرًا، ونسأله أن يُلَقِّبنا يوم الحشر نُصْرَةً وسرورًا، وأن يُظِلنا بظل عرشه حيث لا نرى شمسًا ولا زمهريًا، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تجعل الظلمة نورًا، وتحول موات القلب بعثًا ونشورًا، وتحيل ضيق الصدر انشراحًا وحبورًا، وكيف لا وقد أتى علينا حين من الدهر لم تكن شيئًا مذكورًا، فخلقنا وصوّرنا ورزقنا وكان فضله علينا كبيرًا، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده المرسل مبشّرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، قُرئ عليه القرآن ففاضت بالدمع عيناه، وكان ما تقدم وما تأخر من الذنب مغفورًا، قام الليل حتى تورّمت قدماه، وقال: أفلا أكون عبدًا شكورًا، أكل ورق الشجر حتى تشققت شفتاه، وكان لله محتسبًا صبورًا، حمل سيفه، وغزى ماشيًا في الفلاة، والعشرة يتعاقبون بعيرًا، جاهد الشرك والمشركين، وما لانت له قناة، وقال مقالة الحق وما نطق زورًا، فاز بالحسنى من آمن وشاهد محياه، وكل طائع له بات مأجورًا، ضل من شذ عن طريقه وعصاه، ومن كفر به مات مذبورًا، حلت البركة وعم الخير ما لمست يده، وأصبح القليل من الطعام وفيرًا، عز من لاذ بسنته واحتمى بهداة، وأضحى في كنفه مهضوم الحق منصورًا، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى من فاز بنسبه وصحبه، عدد أنفاس مخلوقاتك شهيقًا وزفيرًا.

أمَّا بعدُ:

إن روعة البيان وسحر الكلام ليعجزان عن التعبير في هذا المجال لأنه قد تحدث فيه الكثير وطوقته الأقلام أكثر من مرة وما نحن إلا قطرة في بحر نحاول أن نستعير بلاغة القول وسحرًا لأداء وروعة البيان لنعبّر عن كل ما في صدورنا وتنطق به مشاعرنا وإنه ليسعدنا أن نجول بأفكارنا وعقولنا متحدثين في هذا الموضوع الشائق الذي يعتبر من الموضوعات ذات الأهمية الكبيرة في علوم العربية ألا وهو «علمُ البلاغة»، إذ أنّ أهمية علم البلاغة العربية استنبطت من

القرآن الكريم لفهم حلاوة معانيه، ومقاصده، وبيان أسرارهِ، وأحكامه، وأخباره، وتفسير آياته الكريمة ومعرفة ما فيها من براعة وعدوبة في اللفظ والتراكيب البلاغية، فهذا العلم يُعتبر الوسيلة المناسبة لمعرفة إعجاز القرآن الكريم، لذلك يؤدي الإغفال عنه إلى عدم إدراك إعجاز النظم القرآني، وبالتالي لا بدّ من الإلمام بقواعد علم البلاغة التي تجعل الإنسان فصيحاً ومتكلماً بلسانٍ بليغٍ، وكانَ من أبرز من كتبوا في هذا العلم «أبو بكر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني»، كيف لا وهو المؤسس لنظرية النظم بإجماع أهل اللغة، حيث ألف كتابه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، أما في "الدلائل" تناول نظريته من حيث الجانب النظري أكثر منه تطبيقي ومهد لها، وفي "الأسرار" لجأ إلى التطبيق بشكلٍ أخصّ.

أهمية البحث:

تنبع أهمية هذه الدراسة من أهمية الدور الكبير الذي قام به عبد القاهر الجرجاني في التعميق لعلم البلاغة العربية من خلال كتابه "أسرار البلاغة" الذي هو محل دراستنا وسائر كتبه، وقد أردنا كشف النقاب عنها وإبراز عبقرية الجرجاني ونبوغه في هذا المجال. كما أنها تعبر عن بلاغة الكلام وبيانه وفصاحته والمعيار الذي يتم التفاضل به بين كلام وآخر ومعرفة الجزل منه والرسن والمفاضلة بين القرآن وكلام البشر.

سبب اختيار الموضوع:

إنّ اللغة العربية من الدّين وتعلّمها فرضٌ واجب على المسلمين، يرفعُ الله قدر من دافع عنها، ويُعلي شأن من علّمها، بها يُفهمُ كتاب الله عزّ وجلّ وعن طريقها تُفقه سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهدمُ اللغة العربية هدمٌ لهذا الدين، والصّدُّ عنها صدٌّ عن هذا الدين، والقيام بها قيام بهذا الدين، فأردنا أن نكون ممن جعل اللغة العربية قضية له ينافح دونها ويدافع عنها ويدعوا بها وإليها، فاخترنا الحديث عن كتابٍ يُعتبرُ عمدةً في فن البلاغة "أسرار البلاغة" فاشتغلنا بتلخيصه وشرح بعضه تيسيراً لطلّاب العلم.

صعوباتُ البحث والمنهج المتبع فيه:

هذا ومما صادفنا من عقبات: أسلوب الجرجاني الذي يميل إلى الغموض في أكثر الحالات، وكثرة الترادف في الألفاظ، وتعمق الجرجاني في بيان ما يريد. مع قلة المصادر التي ترجمت للجرجاني، وعدم تعمقها في ترجمتها، كما أننا أردنا الحصول على بعض الشروح

لكتاب الأسرار التي تساعد في فهم مقاصد الجرجاني "شرح أسرار البلاغة" لمحمد إبراهيم شادي لكننا لم نظفر به لقلّة توفّره وندرته ممّا أدّى إلى صعوبة إنجاز البحث. ثمّ إنّ كتاب "الأسرار" متنّ والمتنّ يُشرّح ويُعادّ تدويره ولكن يصعبُ تلخيصه!

ولقد تعين أن نتخذ المنهج الوصفي التاريخي في المبحث الأول والوصفي في الثاني ثم المنهج التحليلي الوصفي في المبحث الثالث.

الدراساتُ السَّابِقَةُ:

لم نجد فيما بحثنا أنّ أحداً قد تناولَ هذا الموضوع بالعنوان نفسه «تلخيص أسرار البلاغة»، ولكن هناك من تناول كتاب "الأسرار" من ناحية الشرح سواءً باللقاءِ دروسٍ أو بالتأليف. كمحمد أبو موسى وأحمد أحمد بدوي...، كما أننا وجدنا من تناول مصادر الجرجاني في كتابه "الأسرار" مثل: «عبد الله قريم ساكت السرحان، مصادر الجرجاني النقدية دراسة في كتاب أسرار البلاغة، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك-الأردن قسم الآداب، قسم اللغة العربية، 2003م»، وأيضاً دراسات عن حياة الجرجاني مثل: رحاب صالح الطاهر عبد الرحمان، الشواهد القرآنية البلاغية في كتاب دلائل الإعجاز، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه في التفسير، جامعة الخرطوم، كلية الأدب، قسم الدراسات الإسلامية سبتمبر 2005، وغيرها.

قسّمنا البحث إلى ثلاثٍ مباحث كما هو مطلوبٌ ممّا، وتحت كلّ مبحثٍ مطالبٌ عدداً

الأخير!

المبحث الأول: تحدثنا فيه عن حياة الجرجاني الشخصية، وقسّمناه إلى مطالبٍ ثلاثٍ؛ مطلبٌ أول عالجتنا فيه نشأة الجرجاني ونسبه. ومبحثٌ ثانٍ عن مشايخه وتلاميذه، وختمناه بالحديث عن مؤلفات الجرجاني ووفاته.

المبحث الثاني: كان بعنوان؛ دراسة عن كتاب المؤلّف، فُمنّا فيه بتعريف الكتاب ووصفه وذكر منهج الجرجاني فيه والمصادر التي اعتمدها في تأليفه.

ثمّ مبحثٌ آخر ثالثٌ: لخصّنا فيه كتاب "أسرار البلاغة" واتبعنا في ذلك الترتيب الذي سار عليه الجرجانيّ إذ بدأناه بالكلام عن اللفظ والمعنى وختمناه بالحديث عن نظريّة النظم. بالإضافة إلى مقدّمة وخاتمة.

المبحث الأول: حياة المؤلف.

المطلب الأول: نشأته ونسبُهُ.

هو عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، أبو بكر¹، فارسي الأصل، جرجاني الدار²، فقيه على مذهب الشافعية، متكلم على طريقة الاعتزال³، واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللغة⁴، عالم بالنحو والبلاغة، أخذ النحو بجرجان على الشيخ أبي الحسين محمد بن الحسن بن محمد بن عبد الوارث الفارسي، نزيل جرجان، ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي، وأكثر عنه، وقرأ ونظر في تصانيف النحاة والأدباء، وتصدّر بجرجان، وحثت إليه الرّجال، وصنّف التصانيف الجليلة. ومن صفاته أنه كان -رحمه الله- ضيق العطن⁵، لا يستوفي الكلام على ما يذكره مع قدرته على ذلك⁶، وقد كان شديد التدين والورع، روى السلفي؛ أنّ لصادقاً دخل عليه وهو في الصلاة، فأخذ ما وجد، وهو ينظر، ولم يقطع صلاته كما يعدون له قناعته وسكونه. ولم يروي لنا المؤرخون نتيجة مدح عبد القاهر لنظام الملك.

¹ _ خير الدين الزركلي، الأعلام، ج4، ص48. ويُنظر ترجمته في: أنباه الرواة، 188/2، وبغية الوعاة 130، وروضات الجنات 143، وشذرات الذهب 340/3، وفوات الوفيات 378/1، ومرآة الجنان 101/3.

² _ جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت646هـ)، أنباه الرواة، ط1، 1424هـ، المكتبة العنصرية، بيروت، ج2، ص188.

³ _ أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان البافعي اليمني (ت768هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، بيروت، مؤسسة الأعلمي، مطبعة المعارف النظامية، ط1، 1417هـ - 1997م، ج3، ص78، بتصرف.

⁴ _ الزركلي، الأعلام، ج4، ص48.

⁵ _ الصبر والحيلة عند الشدائد.

⁶ _ أنباه الرواة ج2، ص188.

وُلِدَ عبد القاهر في مطلع القرن الخامس للهجري في جرجان¹، وهي مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان، وتسمى بالفارسية كركان وكانت قديماً تسمى أستراباد أو أستراباذ، تقع في أقصى شمال إيران على مقربة من بحر قزوين حالياً وتبعد عن مدينة طهران العاصمة بنحو 300 كم²، ويقال إنما سميت جرجان جرجانا لأنه بناها جرجان بن لاوذ بن سام بن نوح،، وفتح جرجان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد فتح نهاوند لما قتل النعمان بن مقرن ولى خلافته أخوه سويد بن مقرن فجاء إلى الرّي وفتحها ثم عسكر إلى قومس وفتحها ثم فتح جرجان³، قال عنها ياقوت الحموي: "أن فيها «مياهاً كثيرة وضياًعاً عريضةً وليس بالمشرق بعد أن تجاوزَ العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسناً من جرجان على مقدارها وذلك أن بها الثلج والنخل وبها فواكه الصرود والجروم وأهلها يأخذون أنفسهم بالتأني والأخلاق المحمودة»".

وبالحديث عن أوضاع الدولة سياسياً وثقافياً: أما أوضاعها السياسية فقد عاشت جرجان انقسامات عديدة وحروب، وتعرضت إلى الغزاة حيث غزاها يزيد بن المهلب كما استولى عليها ركن الدولة بن بويه، وعضد الدولة وغيرهم.

وبالرغم من اضطراب الحالة السياسية، وظهور بذور الانقسام في العالم الإسلامي إلا أن القرن الخامس للهجري كان قرناً حافلاً بالحركات العلمية في شتى نواحي المعرفة، فقد امتاز هذا القرن بأن احتشدت فيه طوائف من جميع ألوان المعرفة فقد نبغ في هذا العصر: ابن زيدون

¹ _ كان مولد الجرجاني على الغالب سنة 400هـ، كما أشارت إلى ذلك بعض المصادر التي ترجمت له.

² _ موسوعة 1000 مدينة إسلامية، ط1، 1421هـ - 2000م، الوراق للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ص194 بتصرف.

³ _ أبي القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي (ت427هـ)، تاريخ جرجان أو كتاب معرفة علماء أهل جرجان، ط1، 1369هـ - 1950م، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن الهند، ص41.

شاعر الأندلس¹، وأبو القاسم الهذلي²، وأبو الحسن الباخري³، وكذلك نبغ أبو الحسن الواحدي المفسر علي بن أحمد النيسابوري⁴، وحيان بن خلف حسين بن حيان⁵، أيضا نبغ ابن سنان الخفاجي⁶، وأبو بكر الخطيب البغدادي⁷، وابن حزم الظاهري⁸، وكذلك نبغ ابن رشيق القيرواني⁹ وغيرهم، ولما كان هذا العصر عصر علم وتعلم، ومعرفة ونبوغ علماء في شتى نواحي العلم كان الجرجاني من مواليد هذا القرن، وكان من الذين شُهِدَ لهم بالعلم الغزير، ومما ساعد في هذا الازدهار الثقافي الكبير أنَّ أشهر وزراء هذه الدولة الأخيرة نظام الملك أبو علي الحسين بن علي الذي كان محبا للعلم، وهو الذي أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية¹⁰، ولقد كان العصر الذي عاش فيه عبد القاهر عصر حروب ومغامرات بين طلاب الملك

¹ _ هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي الشاعر المشهور (ت463هـ)، برع أدبه وجاد شعره واسع البيان والنظم والنثر. انظر؛ شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي (ت189هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب.

² _ هو أبو القاسم يوسف الهذلي بن علي بن جبارة المغربي (ت465هـ)، انظر شذرات الذهب لشهاب الدين.

³ _ هو أبو الحسن علي بن الحسين بن أبي الطيب الباخري (ت467هـ)، كان إماما فاضلا وشاعرا. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي.

⁴ _ هو أبو الحسن الواحدي المفسر علي بن أحمد النيسابوري تلميذ أبي إسحاق التغلبي (ت468هـ)، كان إمام عصره. انظر شذرات الذهب.

⁵ _ هو حيان بن خلف بن حسين أبو مروان القرطبي الأديب، مؤرخ الأندلس (ت469هـ). انظر؛ الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، العبر في خبر من غير.

⁶ _ هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي، له ديوان شعر في بيروت وكتاب "سر الفصاحة". انظر؛ شمس الدين أحمد أبي بكر البرمكي، الوافي بالوفيات.

⁷ _ هو أبو بكر أحمد بن ثابت بن مهدي أبو بكر الخطيب البغدادي، ولد بالعراق 1391هـ، له تصانيف كثيرة منها؛ "تاريخ بغداد". انظر؛ ابن تغري، النجوم الزاهرة.

⁸ _ هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح الأموي، فارسي الأصل (ت45هـ). انظر؛ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، فطح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.

⁹ _ هو أبو الحسن علي بن رشيق (ت463هـ)، أحد الأفاضل البلغاء وله التصانيف الحسنة، "العمدة في صناعة الشعر ونقده وعبويه" توفي بصقلية. انظر؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب.

¹⁰ _ أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، ط1، 1393هـ - 1973م، بيروت، ص12.

والسلطان، في الرقعة الواسعة التي كانت الدولة العباسية تحكمها، وتاريخ تلك الفترة مسبوغ بالدماء، ولعلّ كثير من العلماء رأى أن الحياة الهادئة إنما تكون في ضلال العلم؛ فأخلص لها، وعكف عليها؛ ولذلك حفظ التاريخ لنا أسماء كثير من العلماء المخلصين في فروع العلم المختلفة في ذلك الوقت¹.

نشأ عبد القاهر في أسرة فارسية، وأغلب الظن أنها كانت رقيقة الحال، حتى أنها لم تجد فضلا من المال تنفقها على ابنها، كي يستطيع أن يتنقل في البلاد لطلب العلم عن أعلامه، فضلًا في مدينته لا يبرحها، ولم تُعن الأسرة بتسجيل اليوم الذي ولد فيه طفلها؛ فضلًا هذا اليوم مجهولاً لدى مؤرخيه، كما يبدو أنّ الأسرة ليس لها أصالة في جاه؛ فلم يعرف التاريخ من سلسلة نسبه سوى جده محمد²، ولكن يظهر أنه نشأ ولوعاً بالعلم محباً للثقافة؛ فأقبل على الكتب يلتهمها، وبخاصّة كتب النحو والأدب، وربما كان اتجاهاه إلى هذين اللوين ناشئاً من اقتفائه أثر أستاذه: أبي الحسين محمد بن الحسن بن محمد بن عبد الوارث الفارسي النحوي، وأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني³.

¹ _ أحمد أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مكتبة مصر، ص19-20.

² _ يُنظر؛ جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت646هـ)، أنباه الرواة، ط1، 1424هـ، المكتبة العنصرية، بيروت، ج2، ص188.

³ _ ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (ت626هـ)، معجم الأدباء، مصر-مكتبة عيسى البابي الحلبي، مطبعة دار المأمون، ج14، ص14.

المطلب الثاني: مشايخه وتلامذته.

أولاً: مشايخه.

لابدّ وأنّ لكلِّ عالمٍ علّماء أخذ عنهم العلم الذي معه، فالعلم لا يمكن أن يؤخذ إلا عن أهله وذلك لا يكون إلا بالجدِّ والاجتهاد والرغبة الشديدة في تحصيله، ولعبد القاهر الجرجاني شيخٌ واحدٌ على أغلب أقوال المترجمين له وهو؛ محمد بن الحسين بن الحسين بن عبد الوارث، وهو ابن أخت أبي علي الفارسي، أخذ عن خاله علم العربية، وطاف في الآفاق ثم رجع إلى الوطن. كان خله قد أوفده على الصاحب ابن عباد إلى جهة "الرّي"، فارتضاه وأكرم مثواه، ثم تعرّب أبو الحسين ولقى الناس في انتقاله ثم استوطن "جرجان" وإلى أن مات بها. قرأ عليها أهلها ومنهم عبد القاهر الجرجاني¹.

وهو أحد أفراد الدهر، وأعيان العلم، وأعلام الفضل، وهو الإمام النحوي بعد خاله أبي علي الفارسي، الذي عليه درس. رحل إلى خراسان، ونزل بنيسابور، وأملى بها في "الأدب" و"النحو" ثم رحل إلى "غوزستان"، وبعد رحلة طويلة بين "نيسابور" و"مكة" نزل جرجان واستقرّ بها، وأخذ عن أهلها فضلاً كثيراً ومن تلاميذه عبد القاهر الجرجاني.

وهو أستاذ الجرجاني وليس له أستاذ سواه، أخذ الجرجاني عن أبي الحسن ابن عبد الوارث، وكان يحكى عنه كثيراً؛ لأنّ لم يلق شيخاً مشهوراً غيره في علم العربية، كما أنه لم يخرج عن

¹ _ المصدر السابق، ج 11، ص 186.

جرجان في طلب العلم، وإنما طراً عليه أبو الحسين فقرأ عليه، أخذ الجرجاني النحو عن أبي الحسين عبد الوارث، ولم يأخذ من سواه، ذكر ذلك ابن العماد الحنبلي، والسيوطي¹.

وذكر ياقوت الحموي أن عبد القاهر قرأ على القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني واغترف من علمه، وكان إذا ذكره في كتبه تبخبخ² - قال بخ بخ - به وشمخ بأنفه بالانتماء إليه³، ونقل هذا القول السيوطي في "بغية الوعاة"⁴ غير أن الحموي نفسه قال في ترجمة محمد بن الحسين بن أخت أبي علي الفارسي أن من تلاميذه عبد القاهر "وليس له أستاذ سواه" والقول الأخير أقرب إلى الصحة لأن القاضي الجرجاني مات في بعض الروايات في سلخ صفر سنة 366، وفي بعضها أنه مات سنة 392، ولا يعقل أن يتصل به عبد القاهر حتى في أواخر أيامه، وقد شك بعض الباحثين في هذه التلمذة⁵.

ويقول أحمد أحمد بدوي؛ "إني أشك فيما رواه ياقوت من أنه قرأ على القاضي الجرجاني شيئاً لأن القاضي توفي 392، فمتى يكون عبد القاهر قد أخذ عنه. وعبد القاهر قد توفي 471، فإذا كان قد أخذ عن القاضي الجرجاني فلا بد أن يكون عبد القاهر قد ولد قبل وفاته بنحو 15 عاماً على الأقل حتى يستطيع أن يأخذ عن عالم واسع العلم كالقاضي، ومعنى ذلك أن عبد القاهر قد ولد سنة 377 فيكون عند وفاته قد أربى على 90 عاماً ولم يشر أحد من

¹ - جلال الدين عبد الرحمان أبي بكر السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق؛ محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر- دار الفكر، ط2، 1979م، ج2، ص106.

² - من بخ، أي عظم الأمر وفخم، تُقال وحدها وتكرَّرُ (بخ بخ)، وهي كلمة تقال عند الرضا أو الإعجاب بالشيء، أو الفخم، أو المدح. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، بيروت- دار المعارف، ط1، ج1، ص265.

³ - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج5، ص249.

⁴ - السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص94.

⁵ - أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، ص14-15.

مؤرخيه إلى أنه طعن في السن إلى مثل هذا الحد مما يرجح أن أخذ عبد القاهر عن القاضي كان أخذاً عن كتبه لا شخصه".

والذي يمكن أن تركز إليه النفس، أن عبد القاهر الجرجاني لم يأخذ العلم من الجرجاني مشافهةً، إلا أنه قد نهل من علم القاضي عبر مؤلفاته القيمة، سائراً على نهجه ومناهجه، وكثيرة هي وجهات النظر التي اتفق فيها الجرجاني مع القاضي والتي تعطي إحساس الأناج والألفة بين هذه المؤلفات «الوساطة للقاضي والدلائل والأسرار للجرجاني» فالأسلوب هو الأسلوب والروح هي الروح والاتجاه هو الاتجاه. فهناك ثمة تقارب بين الرجلين في الفهم.

وتتلمذ عبد القاهر بعد ذلك على الكتب، يقرأها بفكرٍ واعٍ، وَيَقِفُ مُتَرَيِّتاً أمام نصوصها، شأن الطالب الذي يعتمد على نفسه في القراءة والتحصيل، وقد رأيناه في كتبه ينقل عن سيبويه، والجاحظ، وأبي عليّ الفارسي، وابن قتيبة، وقدامه، والآمدي، والقاضي الجرجاني، وأبي هلال العسكري¹، وقرأ كتاب الألفاظ الكتابية، لعبد الرحمان بن عيسى الهمداني، ورجع إلى كتاب الشعر للمرزباني، ونقل عن الزجاج² كما أن له مختارات من شعر البحري والمتنبي وأبي تمام، وذلك يدلنا على أن الرجل تتقف ثقافة أدبية نحوية.

ثانياً: تلامذته.

تصدّر عبد القاهر بجرجان، وذاع صيته في الآفاق، وشدت إليه الرحال، وقصده التلاميذ من جميع الأرجاء، يقرأون عليه كتبه ويأخذونها عنه، وفضل مقيماً بجرجان، يفيد الراحلين إليه، والوافدين عليه؛ وكان من تلاميذه المذكورين:

¹ يُنظر؛ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق؛ ميسر عقاد ومصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت-لبنان، ط1، 1428هـ-2007م.

² راجع؛ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق؛ محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

"علي بن محمد بن علي بن زيد الفصيحى أبو الحسن؛ من الواردين إلى العراق والمتصدرين ببغداد وقد تثقف على يديه جماعة كثيرة، وأخذوا عنه ما أخذ هو من عبد القاهر، وهو من أهل أستراباذ، وأخذ عنه أبو نزار النحوي، والحيص بيص الشاعر المشهور. سمي بالفصيحى لتكراره على فصيح ثعلب، اتهم بالتشيع، قرأ النحو على يد عبد القاهر الجرجاني، قدم بغداد واستوطنها إلى حين وفاته"¹.

أحمد بن إبراهيم بن محمد السجري أبو نصر؛ هو أحد الأدباء الفضلاء، قرأ على أبي بكر عبد القاهر الجرجاني. وقد وجد في آخر نسخة "المقتصد" لعبد القاهر الجرجاني "بالري" مكتوبا حكايته قرأ على الأخ الفقيه أبو نصر إبراهيم بن محمد السجري -أيده الله- من أوله إلى آخره قراءة ضبط وتحقيق.

أبو زكرياء بن علي بن محمد بن حسن بسطام الشيباني؛ نشأ في تبرز -وهي من بلاد أذربيجان، وهي أشهر بلدة بها- قطن "بغداد" أخذ علمه من أئمة اللغة، وله معرفة تامة بالأدب والنحو²، أقام بدمشق مدة، ثم ببغداد وكثر تلاميذه وولي تدريس الأدب بالنظامية وخزانة الكتب بها، له شعر³. من أهم مؤلفاته؛ "تهذيب إصلاح المنطق"، لابن السكيت، "إصلاح الخطأ"، والمراد به ربط لفظ الكلمات التي تختلف معانيها باختلاف حركاتها، أو تشابه معانيها مع

¹ _ شمس الدين أحمد بن أبي بكر البرمكي، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، القاهرة، ط1، 1970، ج3، ص333.

² _ أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، (ت562هـ)، الانسان، تحقيق وتعليق؛ عبد الرحمان بن يحيى المعلمي اليماني، بيروت، ط3، 1980م، ج3، ص31.

³ _ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت-مؤسسة الرسالة، ط1، 1992م، ج18، ص269.

اختلاف حركاتها حسب أوزان الفعل الأصلية، وكذلك صنف "شرحاً للحماسة" و"شرح ديوان المتنبي"، و"شرح سقط الزند" و"شرح للمعلقات". أخذ العلم من عبد القاهر الجرجاني¹.

محمد بن أحمد الأبيوردي؛ وهو من "اليورد" وهو أبو المظفر محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي العباسي أحمد. كان جميل الأمر، لقي عبد القاهر الجرجاني النحوي وأخذ عنه².

أحمد بن ضرير المهابازي الضرير، من تلاميذ عبد القاهر الجرجاني، شرح كتاب "اللمع"³.

المطلب الثالث: مؤلفاته ووفاته.

أولاً: مؤلفاته:

آثار عبد القاهر الجرجاني تُشير إلى أنه قد أحاط علماً بما صنّفه السابقون عليه في علوم الدين والأدب واللغة، وأدلى بدلوه فيما عرضوا له من قضايا ومشاكل، بالإضافة إلى ما حُفظ وجمع له من شعره، ويمكن تقسيم ما ألفه الجرجاني إلى خمسة أقسام هي: النحو والصرف، ثم البلاغة، ثم تفسير بعض القرآن، والعروض، ومختارات من الشعر.

أما في النحو والصرف:

فيظهر أنه أعجب بكتاب الإيضاح في النحو، الذي ألفه أبو علي حسن بن أحمد الفارسي النحوي «ت377هـ»، وهو كتاب متوسط مشتمل على 196 باباً، منها إلى 166 في النحو، والباقي إلى آخره تصريف.

¹ _ جرجي زيدان، تاريخ الأدب العربي، بيروت، منشورات دار مكتبة بيروت، ط1، 1983م، ج3، ص31.

² _ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج18، ص195.

³ _ نفس المصدر، ج18، ص357.

وكانت نتيجة هذا الإعجاب أن ألف عليها عبد القاهر أربعة كتب:

أولها: شرح مبسوط في نحو ثلاثين مجلدا سماه "المغني".

ثانيها: ملخص لهذا الشرح الطويل دعاه "المقتصد"¹ في ثلاث مجلدات، وأتمه عبد القاهر في شهر رمضان سنة 454، وكتبه بخطه، وقرأه عليه من أوله إلى آخره قراءة ضبط وتحصيل أحمد بن محمد الشجري.

ثالثها: كتاب "التكملة"، ولم يذكره إلا الوزير القفطي في كتابه "أنباه الرواة"، وربما أراد بهذا الكتاب أن يضيف مسائل لم يذكرها صاحب الإيضاح.

رابعها: كتاب سماه "الإيجاز"، واختصر فيه "الإيضاح".

وله كتاب "الجمال" في النحو، يقول عنه كشف الظنون: "هو مختصر يقال له "الجرجانية" أيضا، على خمسة فصول: الأول في المقدمات والثاني في عوامل الأفعال، والثالث في عوامل الحروف، والرابع في عوامل الأسماء، والخامس في أشياء منفردة، أوله: الحمد لله حمد الشاكرين...".

وقد ظفر كتاب الجمال بتقدير كثير من الأعيان والنحاة، فله شروح كثيرة ذكرها صاحب كشف الظنون، منها شرح ابن السيد البطليوسي المتوفي سنة 521هـ، وشرح ابن الخشاب البغدادي النحوي المتوفي 567هـ، وشرح البلنسي المتوفي بمرسية سنة 585هـ، وألف عبد القاهر نفسه شرحا سماه "التلخيص".

¹ _ من الجزء الثاني من كتاب المقتصد نسخة خطية بدار الكتب رقم 1103، نحو.

وكتاب الجمل نفسه شرح لمختصر في النحو ألفه عبد القاهر، وسماه "العوامل المائة"، وظفر هذا الكتاب بعناية وشروح النحاة.

وله كتاب "العمدة" و"المفتاح في الصرف" في التصريف¹، وكتاب في العروض².

وأما في القرآن وإعجازه فله:

- كتاب "شرح الفاتحة" في مجلد، ولم يبقَ لنا الكتاب حتى نعرف أي نوع من أنواع التفسير قام به، عندما شرح الفاتحة، وهل طبق رأيه في النظم؟ ولم خصَّ الفاتحة بالشرح؟

- وله شرحان على "إعجاز القرآن"، أحدهما كبير سماه: "المعتضد"، والآخر صغير.

أما كتاب "إعجاز القرآن" فمؤلفه: أبو عبد الله محمد ابن زيد الواسطي المتوفي سنة 306هـ.

- "الرسالة الشافية" في الإعجاز³، وقد فصل عبد القاهر هدفه من هذه الرسالة إذ قال "هذه جمل من القول في بيان عجز العرب حين تُحدّوا إلى معارضة القرآن..."⁴، وواضح من ذلك أن هدف الرسالة هو إثبات عجز العرب عن معارضة القرآن.

وله في البلاغة:

¹ _ المرجع السابق، ص24.

² _ يُنظر، أحمد أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، ص33-34-35.

³ _ نشرتها دار المعارف ضمن مجموعة "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، حققها وعلق عليها محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام.

⁴ _ عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية في إعجاز القرآن الكريم، تحقيق؛ محمود محمد شاكر، دار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع، ص13.

1- كتاب "دلائل الإعجاز"¹: وهذا كتاب في غاية الحسن والبراعة ولم يسبقه أحد إلى مثله ففي هذا الكتاب يرّد عبد القاهر على مذهب أصحاب الصرفة، ويمضي عبد القاهر في كتابه "دلائل الإعجاز" شارحاً فيه معنى البلاغة والفصاحة، وله في معناهما وجهة نظر، شرحها، وطبق عليها.

وبالرغم من أن الكتاب معنون بدلائل الإعجاز لم نجد له علاجاً طويلاً لآيات القرآن، واتخاذها الأساس في تطبيق فكرته، وكنا ننتظر منه أن يجعل القرآن هو المحور لبيان الفصاحة والبلاغة، وتناهي بلاغته إلى أن تصل إلى درجة الإعجاز، وأن ذلك ليفتح باباً للموازنات بين القرآن وغيره من الكلام البليغ يتبين فيها سمو التعبير القرآني، وهو السبب الذي دعى عبد القاهر إلى إنشاء كتابه².

2- "أسرار البلاغة"³: تكلم فيه الجرجاني عن بعض فنون البلاغة من فن البديع، ومباحث في علم البيان. وكان يرمي إلى أبعد مما رمى السكاكي؛ حيث حصر البلاغة في علمي البيان والمعاني، وذلك عندما رأى الجرجاني أن هناك علماً واحداً غاية الدراسة أن يستشير الأسرار التي ترفع من قدرة الكلام وتحله ذروة الفصاحة.

تحدث في مطلع الكتاب عن "الجناس" و"السجع" كذلك تحدث عن الاستعارة وأنواعها "مفيدة وغير مفيدة" والتشبيه بأنواعه. وذكر هذا المؤلف جميع المترجمين له، إلا أنه قد يتبادر للذهن سؤال أيهما كان أسبق في التأليف "الأسرار" أم "الدلائل"؟

ومن المرجح أن يكون "الدلائل" أسبق من "الأسرار" ولذلك قرائن منها:

¹ _ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص432.

² _ أحمد أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، ص53.

³ _ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص433.

1- أن الجرجاني في فاتحة "الأسرار" قد أوجز النظرية التي جاء بها في "الدلائل" وهي نظريته في النظم بقوله: "إن التباين في هذه الفضيلة، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة؛ ليس بمجرد اللفظ. كيف؟ والألفاظ لا تفيد حتى تألف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب. فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدا كيف جاء واتفق؟ وأبطلت نضده ونظامه الذي بني فيه وأفرغ المعنى وأجرى، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد.

2- استعار الجرجاني بعض الأمثلة التي أوردها في "الدلائل" وكرر بعض العبارات في فاتحة "الأسرار".

3- ليس في "الأسرار" كلمة واحدة في "الإعجاز" مما يترجح أن هذا الكتاب بمثابة المقدمة لكتاب "الدلائل" الذي ألفه للبحث عن الشيء الذي تجدد بالقرآن فبان وبهر وقهر الأطماع وهذا ل يمكن أن يعرف إلا إذا أحكمنا الذي قام عليه كتاب "الدلائل" فيأتي "الأسرار" في النسق العلمي مقدمة ل "الدلائل".

4- في كتاب دلائل "الإعجاز" إشارات نحوية بالغة الأهمية، أبواب عظيمة من حيث المادة اللغوية، وفيه دعوة إلى معرفة أسرار البلاغة ومدارها¹.

ما ألفه في الشعر:

ولعبد القاهر شعر حفظته كتب التراجم والأدب، وهو قليل² لا يدل على شاعرية وغزارة إنتاج، وإن كان القفطي يقول: "وأشعاره كثيرة في ذم الزمان وأهله، وكان هذا الأمر هو السبب

¹ _ رحاب صالح الطاهر عبد الرحمان، الشواهد القرآنية البلاغية في كتاب دلائل الإعجاز، ص 28-29.

² _ خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت-دار العلم للملايين، ط1، 1984م، ج4، ص370.

في تقصيره إذا صنف إذ لم يجد راحة ممن جمع لهم وألف"، وما بين أيدينا من شعره يؤيد ما قاله القفطي، فقد كان أبيا يكره النفاق ويعلن أنه لن يغير ما بنفسه يقول:

خلع الناس إهابا وتبدوا في إهاب

وأرى نفسي تأبى غير ما كان ثيابي

إن أتربا من الما ل بلثم للتراب

ليس من خيم الكريم الخيم والمحض اللباب

ليس بالإقبال ما نيل بتقبيل الكلاب

إن باغي الربح والخسران في باب وباب

تاجر غير بصير بمقادير الحساب

وكان يهتم كثيرا باختيار الأصدقاء الذين يعرفون قدر الصديق، يقول:

ومالك مطمع في المرء إلا إذا ما أنكر الأمر القبيحا

فأما وهو يجهل بين قبح وبين الحسن فرقانا صحيحا

فإنك في رجاء الخير منه بأجواز الفلاة تكيل ريحا

ويبدو أنه حاول الاتصال بولاة الأمور فلم يفلح لأنه كان عفا أبي النَّفس فقال:

لا يوحشَنَّك أنَّهم ما ارتاحوا مما جللاه عليهم المداخ

فهم كقومٍ علقَت بازائهم ببعض المرائي والوجوه قباخ¹

ولست أدري ممن هؤلاء الذين مدحهم فلم يعنوا بمدحه إذ ليس بين يديّ من شعره ما
مدح به أحد سوى الوزير نظام الملك أبا علي الحسن بن علي، وزير السلاجقة، وكان قد
اشتغل بالحديث والفقه، وكثيراً ما انفرد بإدارة شؤون الدولة، ويذكر له التاريخ أنه أول من أنشأ
مدارس في البلاد. وقد مدحه عبد القاهر بشعر منه:

لو جاود الغيث غدا بالجود منه أجدر

أوقيس عرف عرفه بالمسك كان أعطر

ذو شميمٍ لو أنها في الماء ما تغيرا

وهمة لو أنها للنجم ما تغوزا²

لو مسّ عود يابسا أوراق ثم أثمر³

امتاز شعر الجرجاني بسلاسة اللفظ وجزالته، وقوة معانيه، والموضعية، واعتزازه بنفسه برغم
رقة حال أسرته، وتوفر الحكمة فيه، ولصعوبة الأسلوب وبساطته، ورغم قلة شعره إلا أن شعره
أعرب عن تمكنه في اللغة وتصرفه فيها⁴.

ومن شعره:

لا تأمن النفثة من شاعرٍ ما دام حيا سالما ناطقا

¹ - أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، ص 20-21.

² - تغوزا: غرب.

³ - أحمد أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، ص 11.

⁴ - رحاب صالح الطاهر عبد الرحمان، الشواهد القرآنية البلاغية في كتاب دلائل الإعجاز، ص 27.

فإن من يمدحكم كاذبا يحسن أن يهجوكم صادقا

وزاد سوء ظنه بزمانه فصاح قائلاً:

هذا زمان ليس فيه سوى النذالة والجهالة لم يرق فيه صاعد إلا وسلمه النذالة

وحيثما رأى نفسه فقيراً لا يأبه به أحد مع ما نال من العلم والمنزلة، قال:

كبر على العلم يا خليلي ومل إلى الجهل ميل هائم

وعش حماراً تعش سعيداً فالسعد في طالع البهائم¹

ولعبد القاهر مسائل منثورة أثبتها في مجلد، هو "كالتذكرة"² له، لم يستوفي القول حق

الاستيفاء في المسائل التي سطرها.

هكذا قال الوزير القفطي في "إنباه الرواة"، ولم يبين طبيعة المسائل التي سطرها عبد القاهر

في هذه التذكرة، ولعلها مما يرتبط بإعجاز القرآن، فقد أثبت هذه التذكرة، بعد أن تحدث عن

كتابه "إعجاز القرآن" الذي رجحنا أنه كتاب "دلائل الإعجاز"، والذي علق عليه صاحب

"الإنباه" بأنه دل على معرفة بأصول البلاغات ومجاز الإيجاز؛ فإن الوزير القفطي قال بعد أن

ذكر الكتابين "إعجاز القرآن" و"التذكرة": "ومع هذا كله، فإن كلامه وغوصه على جواهر هذا

النوع يدل على تبحره وكثرة اطلاعه" مما يدل على أن موضوع التذكرة يشبه موضوع دلائل

الإعجاز.

¹ _ أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، ص22.

² _ جمال الدين القفطي، أنباه الرواة، ج2، ص188.

وربما لم يستوف عبد القاهر القول في المسائل التي سطرها؛ لأنه كان يأمل أن يعود إليها؛ ليستوفي القول فيها، وليتم شرحها وتوضيحها، ليعرضها بعد ذلك منسقة في نظام، مرتبة في كتاب¹.

ثانياً: وفاته.

ولم يزل عبد القاهر الجرجاني مقيماً بجرجان يفيد الراحلين إليه والوافدين عليه إلى أن توفي سنة واحدٍ وسبعين وأربعمائة للهجرة وقيل سنة أربعٍ وسبعين وأربعمائة. الموافق سنة ثمانية وسبعون وألف للميلاد، أو شباط سنة اثنان وثمانون وألف².

¹ _ أحمد أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، ص 68.

² _ يُنظر؛ جمال الدين القفطي، أنباء الرواة، ج 2، ص 180.

المبحث الثاني: دراسة عن كتاب المؤلف.

المطلب الأول: التعريف بالكتاب والقيمة العلمية له.

أولاً: التعريف بالكتاب.

أ- تحقيق العنوان:

يقول عبد السلام محمد هارون في كتابه "تحقيق النصوص ونشرها": فالكتاب المحقق هو الذي صحَّ عنوانه، واسم مؤلفه، ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه¹.

وعلى هذا فإن كتاب "أسرار البلاغة" على حسب ما اطلعنا عليه في كتب التراجم؛ كتابٌ محققٌ لأنه قد صحَّ عنوانه والذي هو باسم "أسرار البلاغة" في أغلب النسخ والطبعات، ويُطلق عليه أيضاً "أسرار البلاغة في علم البيان" بإضافة "في علم البيان"، ولكن الثابت الراسخ عند المترجمين للجرجاني "أسرار البلاغة".

أمّا بالنسبة لاسم المؤلف فلا خلاف على أنه "عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، أبو بكر" إذ أن كلّ الذين ترجموا لعبد القاهر وكتبوا فيه لم يقع عندهم شك ولا ريبٌ في أن كتاب "أسرار البلاغة" له، كما ذكرنا آنفاً في المبحث الأول عند الحديث عن مؤلفات الجرجاني نسبةً الكتاب له وأنه هو من ألفه.

¹ _ عبد السلام محمد هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ط7، 1418هـ-1998م، مكتبة الخانجي-القاهرة.

ب- نُسخ وطبعات الكتاب:

لكتاب "أسرار البلاغة" نسخٌ وطبعاتٌ كثيرةٌ نذكرُ منها:

(1) عنوان الكتاب: أسرار البلاغة.

المؤلف: عبد القاهر الجرجاني.

تعليق: محمود شاكر.

الناشر: مكتبة الخانجي.

رقم الطبعة: 1.

تاريخ الطبعة: 1991م.

عدد الصفحات: 578.

(2) عنوان الكتاب: أسرار البلاغة في علم البيان.

المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الفارسيّ الأصل، الجرجاني
الدار.

المحقق: عبد الحميد هندراوي.

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 1422هـ-2001م، عدد الأجزاء

(3) عنوان الكتاب: أسرار البلاغة.

المؤلف: عبد القاهر الجرجاني.

اعتنى به: ميسّر عقّاد، ومصطفى شيخ مصطفى.

الناشر: مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1428هـ-2007م،

عدد الأجزاء 1. عدد الصفحات: 299.

وهي نسخة ورقية بين أيدينا والتي سنشرعُ في تلخيصها بإذن الله تعالى.

(4) عنوان الكتاب: أسرار البلاغة.

المؤلف: أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني.

الطبعة: الأولى 1412هـ.

قرأ وعلّق عليه: محمود محمد شاكر.

عدد الأجزاء: 1.

عدد الصفحات: 548.

الناشر: شركة القدس، دار المدني.

(5) العنوان: أسرار البلاغة في علم البيان.

المؤلف: عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني.

تحقيق: عبد الحميد هندراوي.

الطبعة: 2.

عدد الأجزاء: 1.

الناشر: دار الكتب العلمية.

عدد الصفحات: 326.

(6) العنوان: أسرار البلاغة في علم البيان.

صحّحها على نسخة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، التي قرأها دروسا في الجامع

الأزهر، وأودع فيها جميع تعليقاته على حواشيتها ووضع بجانبها حرف «ش» المقتطع

من كلمة شيخه، وعلّق حواشيه؛ السيد محمد رشيد رضا.

الطبعة: الأولى 1409 هـ - 1988 م.

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.

(7) العنوان: أسرار البلاغة في علم البيان.

تأليف: الإمام عبد القاهر الجرجاني.

علّق على حواشيه المرحوم: محمد رشيد رضا.

الطبعة: الثالثة 1358هـ - 1939م.

الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي.

(8) العنوان: أسرار البلاغة.

المؤلف: عبد القاهر الجرجاني.

الطبعة: الأولى 1431هـ - 2010م.

الناشر: دار ابن الجوزي للطبع والنشر والتوزيع، مصر-القاهرة.

عدد الصفحات: 225.

ولعلّ أجدد التحقيقات للكتاب هو الصادر عن دار الجيل بيروت سنة 1991م قام به محمد

عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف.

ثانياً: القيمة العلمية للكتاب.

قال أحمد مطلوب: "وقد أثبت عبد القاهر أنّ الفنّ البلاغيّ الواحد يمكن أن يُنظرَ إليه من

جوانب مختلفة، وأن يُحلَّلَ تحليلاً جديداً يُضفي عليه روحاً لم يكن يُحسُّها القارئ قبل ذلك.

ولا نجد في كتب البلاغة والتّقدِّم السابقة تحليلاً كتّحليل عبد القاهر ولا نظرةً كنظرته ولا فهماً

كفهمه، وإن بحث فنوناً سبق أن تحدّث عنها السّابقون، وهذا هو الفرق بين عالمٍ مجدّدٍ وآخر

مُقلِّدٍ"¹.

¹ _ أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، ص 40.

وفي مقدّمة الناشر لكتاب "أسرار البلاغة" يقول: "فإنّ كتاب "أسرار البلاغة" أصلٌ في بابه، وعمدّةٌ في ميدانه؛ إذ فيه الأسسُ لعلمِ البلاغة، والتّقييد له، وقد اعتمد فيه مؤلفه على سليقة عربية سليمة، وعلى معرفة وثيقة باللّغة وأسرارها"¹.

"لهذا بادر الإمام مفتي الديار المصرية في هذه الأعوام إلى تدريس الكتاب في الأزهر الشريف عقبَ شروعه في طبعه فأقبل على حضور درسه مع أذكّياء الطّلاب كثيرون من العلماء والمدرّسين وأساتذة المدارس الأميرية وقد قال أحد فضلاء هؤلاء الأساتذة بعد حضور الدرس الأوّل: "إننا قد اكتشفنا في هذه الليلة معنى البيان".

وقد وضع في هذه الطبعة تعليقات مفيدة، وبعض تراجم فصول الكتاب لأن عبد القاهر كان يكتفي في كثيرٍ منها بكلمة فصل، وبذلك خدم الإمام محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا بلاغة عبد القاهر بطبع كتابيه وتدرّيسهما في الأزهر الشريف"².

المطلب الثاني: منهجه في الكتاب وطريقة العرض التي سار عليها فيه.

إنّ كتاب أسرار البلاغة له هدفٌ غير كتاب الدلائل. ذلك أن مسائل المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية مسائل لها دخل كبير في بلاغة القول، حتى أفردها بعض الباحثين بالدراسة المستقلة؛ فكان من ذلك أن ألّف عبد القاهر كتابه: "أسرار البلاغة" ليعالج هذه الأبواب معالجة خاصة، تُبيّن سحرها وألوان فنونها. ولعلّه رأى أنّه لا مزيد عنه من القول في باب الكناية فاكتفى بما ذكره من الحديث عنها في "دلائل الإعجاز".

¹ _ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق؛ مصطفى شيخ مصطفى وميسر عقاد، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1428هـ-2007م، ص6.

² _ أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، ص27-28.

لدراسة هذه الأبواب في كتاب الأسرار هدفٌ غيرَ الهدف الذي دُرست له في كتاب الدلائل، فهي قد دُرست في كتاب "الدلائل" لبيان أنّ البلاغة راجعة إلى المعنى، وهي قاطعة الدلالة على ذلك الهدف؛ أما في كتاب الأسرار فالهدف معرفة أقسامها، والفروق بين بعضها وبعض، ومعرفة القوي والضعيف من هذا الأقسام.

كتاب "أسرار البلاغة" إذا يعالج أبوابا لها أثرها الكبير في البلاغة، وهي أبواب لها اتصال وثيق بعضها ببعض؛ فالمجاز منه ما هو عقلي، ومنه ما هو لغوي، واللغوي منه ما هو مُرسل، ومنه ما هو استعارة، والاستعارة مبنية على التشبيه، فوجب ذكر هذه الأبواب جميعاً، كما كان من الضروري ذكر الحقيقة لمعرفة معنى المجاز.

ولمّا كانت السرقة إنما تكون في المعاني الخاصة، وكان التشبيه إحدى الوسائل التي تُحدث في المعنى خصوصية للشاعر دُرست بعد باب التشبيه.

وإذا كانت السرقة قد درست أيضا في كتاب "الدلائل" فذلك لتحقيق الهدف منه، وهو أن اللفظ تابع للمعنى، وأن المعنى يتغير بتغيير الصورة، بالرغم أن أصل المعنى واحد عند الشعارين.

كتاب "الأسرار" وحدة متصلة الأجزاء ككتاب "الدلائل"، وعبد القاهر يعترف بأنه كان ينبغي أن يرتب الكتاب على منهج منطقي يتكلم فيه أولا على الحقيقة والمجاز والفروق بينهما، ثم على ألوان المجاز، ثم على التشبيه لترتيب الاستعارة عليه، ثم على الاستعارة؛ ولكنه عدل عن ذلك، وبدأ بالاستعارة لأهميتها في البلاغة، ثم تحدث عن التشبيه الذي بنيت عليه الاستعارة وعن السرقة لاتصالها بالتشبيه، كما ذكرنا، ثم ختم الحديث بالحقيقة والمجاز.

لا ينعص على كتاب "الأسرار" هذه الوحدة إلا ذكره في أول الكتاب بابي السجع والجناس يبرهن يهما على أن بلاغتهما للمعنى، لا للفظ، وذلك من موضوع كتاب "الدلائل"، وقد ذكرهما فيه، وأورد أمثلة أعادها في أسرار البلاغة.

ولو أن عبد القاهر جاء بهذا الفصل كله في كتاب الدلائل لكان موضوعا في كتابه الطبيعي. ولسنا ندري السبب الذي جعل عبد القاهر يجعله فاتحة كتابه في أسرار البلاغة، ولعله أراد أن يربط بين كتابيه، وان يجمل فكرته عن البلاغة وتبعية اللفظ للمعنى، وليبرهن على ذلك بالتجنيس والسجع، حتى يكون قارئ كتابه: "الأسرار" متذكرا فكرته في البلاغة.

بل قد يُكرّر في "الأسرار" ما ذكره في "الدلائل" كموضوع عودة البلاغة في الاستعارة إلى معناها، مكررا هنا الدليل نفسه الذي ذكره هناك.

ويريد عبد القاهر من دراسته البلاغية أن يصل إلى وضع القوانين الشاملة، وبيان الأقسام في كل شيء، وذكر الفروق بين العبارات؛ ويرى في ذلك فائدة لا تُنكر وهو من أجل هذا لا يقنع بإدراك الفرق بين تعبيرٍ وتعبير، بل يُريد أن يصل من ذلك إلى قانون شامل، وأقسام واضحة.

وعلى هذا الأساس مضى إلى المجاز فجعله أقساماً، وحدد لكل قسم ميدانه، مُبيّنا الفروق بين كل قسمٍ وآخر. وكذلك مضى إلى التشبيه، فذكر ماله من أقسام، معنيا بوجه خاص بالفروق بين التشبيه العادي وتشبيه التمثيل، ملتصقا بأسباب قوة التشبيه، محددًا كل سببٍ وممثلاً له. وسار على هذا النهج في الاستعارة فذكر منها لونين، مُبيّنا في إيضاح الفرق بين هذين اللونين من أساليب التعبير.

منهج عبد القاهر في عرض أفكاره أنه يُلحّ على الفكرة إلحاحاً شديداً، يجمع كل ما يملكه من جهد في شرحها والتمثيل لها، ودفع الشبه عنها، فهو بحقٍ يعرض ما يؤمن به، ولذلك لا يدّخر وسعا في رد ما يعرض على فكرته من الشبه وكثيرا ما يُكرّر الفكرة لتشبيتها. وبخاصة في كتاب "الدلائل".

ومن خصائصه الدقيقة في التعبير، والإلحاح في طلب الدقة، والبعد عن المناقشات اللفظية التي ليس لها نتيجة علمية؛ إذ كل مناقشاته تهدف إلى استخلاص الحقيقة، والوصول إليها، وبلورة الفكرة، وتوضيحها.

ولا يقف عند حدّ ذكر الأحكام، بل يبحث عن أسبابها. ويوضح عبد القاهر فكرته بالأمثلة الكثيرة، ثم يشرحها ويحللها، شرحاً وتحليلاً واضحين، فلا سبيل عنده للتعبير الرمزي.

بل إنَّ عبد القاهر في شرحه وتحليله قريب إلى ذوقنا المعاصر قرباً بيناً. وهو في كتابه ذو شخصيّة قويّة مستقلّة، تشعر وأنت تقرأ كتابه أنّك أمام أستاذ يُقرّر لك آرائه في اطمئنان وثقة، ويعرض عليك الموضوعات مصبوغة بصبغته الخاصّة وأسلوبه الخاصّ.

ولا يُقلّل من قيمة هذه الشّخصيّة أنّه استفاد من العلماء الذين سبقوه، فرأيناه ينقل عن سيبويه، والجاحظ، وأستاذه القاضي الجرجاني، وغيرهم، ولكن النقل الذي يُسند به رأسه بعد أن يكون هذا الرّأي قد أوضحه عبد القاهر من جميع جوانبه، وألقى عليه من شخصيته؛ على أنه كان قليل النقل إلى درجة ملحوظة.

ولا يتقيد عبد القاهر برأي لا يراه صواباً، وإن صدر عن عالم له مكانته، كما رأينا ذلك عند دراسته لأبيات:

ولمّا قضينا من منى كلّ حاجةٍ ومسّح بالأركان من هو ماسح

وشدّت على حدب المهارى رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المُطَيّ الأباطح¹

¹ _ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص22.

فبرغم أن بعض النقاد لا يرى في هذا الشعر أكثر من عبارات جيدة لا تحمل معنى رائعاً، رأى عبد القاهر فيها شعراً قوياً للتعبير ذا صورة مؤثرة، وخواطر صحيحة قيمة. وهكذا كان منهج عبد القاهر، منهج الشخص الواثق بنفسه، المطمئن في أفكاره، المؤمن بما يقول¹.

"ومن أصول منهج عبد القاهر بجانب تحليله للأفكار تحليلاً دقيقاً تحليله للألفاظ، وتحقيق معانيها، والوقوف عند مخارج هذه المعاني، وبيان ما يحتمل وما لا يحتمل، وأكثر فكره مؤسس على هذين الأصلين وهما أمران ينتجان السداد غالباً، ويبعدان العالم عن الغفلة وما ينطوي عليه الرأي من الفساد، ولذلك كان عبد القاهر قليل الزلات، لأن آرائه مدروسة بعناية وتمحيص، والذي خالفه فيه أهل العلم معروف محدود"².

ولعلّ ما لا يندّ عن ذهن أو يغيب عن خاطر أنّ البلاغة بلغت أوج عظمتها في عهد من أرى على الأكفاء، وتميز عن النظراء، العالم الثّبت أبا بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني الذي نظر ميمناً ويسراً فلم يجد من مسائل هذه الفنون إلا تنفاً مبعثرة لا تسمن ولا تغني من جوع فشمّر عن ساعد الجدّ، وجمع متفرقاتها، وأقام بناءها على أسس متينة، وركز دعائمها على أرض جدد لا تنهار، وأملى من القواعد ما شاء الله أن يملي في كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" وأحكم بنيانها بضرب الأمثلة والشواهد، حتى أناف بها على اليفاع، وقَرَنَ فيهما بين العلم والعمل، إذ رأى أن مسائل الفنون لا يستقر لها قرار إلا بكثرة الأمثلة والنماذج، فالصور الإجمالية التي تؤخذ من القواعد، إن لم تؤيدها الصور التفصيلية التي تستفاد من النماذج، لا تتمثل في الأذهان حق التمثيل، ولا تنجلي حقيقتها تمام الانجلاء، ولعلّ هذه الأمثلة التي تخلق نوعاً من التجانس والألفة بين الفنون والشواهد تبين مدى فحولة هذا القطب

¹ _ يُنظر؛ أحمد أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية.

² _ محمد محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، ط2، 1418هـ-1997م، مكتبة وهبة- القاهرة، ص384.

في التفكير بالطريقة التي اتبعها لم يتمّ ترويضها أو استئناسها من قبل وما خلفه من تراث علمي، ونتاج أدبي يدل على سعة ثقافته وخصوبة فكره كما يدلّ على أنه بصير بمذاهب الكلام، عارف بمطارح الإساءة والإحسان، كيف لا وهو المؤسس الأول لعلم البلاغة حيث قال في كتابه الأسرار؛ "واعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته والأساس الذي وضعته"¹.

ولقد ذاعت شهرته في التأليف وسارت مؤلفاته في كل صقع وواد وأجبر كتّاب الطبقات والتراجم أن يكثرُوا من ذكر اسمه في مصنفاتهم ويطنبوا في وصفه بالذكاء والنبوغ ورفاهة الحسّ ولطافة التخيل. ولقد استمد الجرجاني أجرى الكُتّاب قريحة أيّدولوجيته من التراث الإسلامي واستعان في دراسته البلاغية بما كُتّب في النقد والبلاغة والإعجاز قبله. يمدّه بالجديد فيها ذوق مثقف، وحسّ لغويّ دقيق، وقد قرأ الكثير من دواوين الشعر، وعكف على التراث الثقافي قبله وهضمه وتمثله، وانعكس ذلك واضح على ما كتبه كما قد تأثر عبد القاهر في بعض نواحي تفكيره البلاغي والنقدي بالثقافة الإغريقية ولا سيما بحوث أرسطو.

فالإمام عبد القاهر لم يؤلّف كتاب "أسرار البلاغة" لغرض ديني أو مسألة تتعلق بإعجاز القرآن، وإنما ألفه لغاية بلاغية، ووضع الأصول والقوانين، وبيان الأقسام، وذكر الفروق بين العبارات والفنون البيانية. وقد وقف الإمام عبد القاهر في إبراز الجودة الأدبية التي تأثر بصورها البيانية في نفس متذوقها، ولذلك نجده قد أوغل في الصور البيانية من تشبيه واستعارة ومجاز أيما تفصيل، ولم يُغفل الحديث عن الجناس والسجع والطباق، وقد ذكرها لبيان مزيتها وحسنها عندما يطلبها المعني".

¹ _ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص26. قال الشيخ شيد رضا في التعليق عليه: (هذا نص من المصنّف بأنه هو الواضع لهذا الفن. وهو ما لم ينكره عليه أحد). قال العلامة محمود شاكر: (وصدق الشيخ).

إن كتاب "أسرار البلاغة" عبارة عن بحث خالص في موضوعات علم البيان، بالإضافة إلى بعض ألوان من البديع هي: الجناس والسجع والطباق. وعلى الرغم من أن هذه المباحث قد شهدت تطوراً ملحوظاً على يد عبد القاهر غلا ان تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاثة: المعاني والبيان والبديع لم يكن قد استقر حتى عصر عبد القاهر. ولعلّ الأمر الذي دفع المتأخرين من علماء البلاغة إلى تسميته العلم الذي يبحث في هذه الفنون البلاغية بهذا الاسم: علم البيان، أن عبد القاهر الجرجاني قد أشار في مقدمة كتابه إلى البيان الذي ميّز الله به الإنسان من سائر الحيوان وهو قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} ¹. ويمكن إجمال الموضوعات التي تطرق إليها الجرجاني في كتابه "أسرار البلاغة" في ثلاث موضوعات:

أولاً: حديثٌ عن اللفظ والمعنى فالكلام «التأليف» وأن الجودة فيه مردها إلى المعنى دون اللفظ، وعلى هذا فإن ألوان البديع والبيان كالتجنيس والسجع والطباق والاستعارة إنما يعود الحسن فيها إلى المعنى دون اللفظ.

ثانياً: حديث عن التشبيه والتمثيل والاستعارة مميزا بين حد كل منها والفروق التي تميز بين معاني هذه الألوان البيانية.

ثالثاً: حديث عن الحقيقة والمجاز بنوعيه: اللغوي والعقلي ومحاولة للتمييز بين مفهوم كل نوع منهما، إلى حديث مختصر عن السرقات الشعرية.

حديث عبد القاهر عن التشبيه وأقسامه: نجد أن علماء اللغة قد اجتمعت كلمتهم، واتحدت وجهتهم على أن التشبيه والتمثيل هما وجهان لعملة واحدة وأن الشبّه والشبّه كالمثّل والمثّل والمثيل وزناً ومعنى، وأن أشبهه وشابّهه بمعنى مائله فهما متفقان معنى ولا فرق بينهما. أما علماء البيان: فقد اتفقت كلمتهم على أن التشبيه أعم من التمثيل فكل تمثيل تشبيه، وليس كل

¹ _ القرآن الكريم، الرحمان، الآيات 1-4.

تشبيه تمثيلاً. وقبل أن يشرع الجرجاني في تعريف التشبيه يقسمه إلى ضربين: أحدهما أن يكون من جهة أمر بيّن لا يحتاج فيه إلى تأول. والآخر: أن يكون الشبه محصلاً بضرب من التأول. فالضرب الأول هو التشبيه غير التمثيلي الذي لا يحوج النفس إلى إعمال للذهن وكدّ للفكر لأنه واضح وبين فالمشبه يُشارك المشبّه به في الصفات والسكنات سواء كان وجه الشبه حسياً أو عقلياً، التشبيه الحسي يكون نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجهه وبالحلقة في وجهه آخر. وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخدود بالورد، والشعر بالليل، والوجه بالنهار. وتشبيه سقط النار بعين الديك، وما جرى في هذا الطريق. أو جمع الصورة واللون كقول قيس بن الخطيم أو أبي بن قيس بن الأسلت مشبهاً الثريا التي تتهادى في صفحة السماء الأدهم بعنقود الكرم:

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كعنقود ملاحية حين نورا

فوجه الشبه يتركب من اللون والشكل فهو عبارة عن اجتماع مجموعة من حبيبات الأجرام الصغيرة البيضاء التي تحلقت في صفحة تضح ألقا وبهاءً تشابه عنقود العنب الأبيض الطويل حينما يشع في الظلام الدامس. أما التشبيه من جهة الهيئة فيدخل فيه حال الحركات في أجسامها، كتشبيه الذهاب على الاستقامة بالسهم السديد، وكذلك كل تشبيه يجمع بين شيئين مما يدخل تحت الحواس، كتشبيه بعض الأصوات ببعض، مثل تشبيه أطيّط¹ الرجل بأصوات الفراريج²، كقول ذي الرمة أبي الحارث:

كأن أصوات من إيغالهن بنا أواخر الميس إنقاض الفراريج

¹ _ صوت الجوف من الخوا، أو هو صوت البطن من شدّة العطش.

² _ جمع فروج وهي صغار الدجاج.

يريد الشاعر أن بعض الرجل يحك بعضه، فيحصل صوت شبيه بصوت صغار الدجاج من شدة السير، واضطراب الرجل، ووجه الشبه، الاشتراك في النعمة الخاصة. ومن صور هذا الصنف من التشبيه تشبيه الفواكه الحلوة المذاق بالعسل أو السكر، وتشبيه الشيء اللدن الناعم بالخز، والخشن بالغليظ الملمس بالمسح وهو ثوب الشعر الجاف، أو تشبيه رائحة بعض الورود والرياحين برائحة الكافور. أما التشبيه العقلي فهو التشبيه الذي ينعقد من جهة الغريزة والطباع "كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة والذئب في المكر. والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء والكرم واللؤم، وكذلك تشبيه الرجل بالرجل في الشدة والقوة وما يتصل بها. فالشبه في هذا كله بين لا يجري فيه التأويل ولا يفترق إليه في تحصيله، وأي تأويل يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة وأنت تراها ههنا كما تراها هناك؟ وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل".

أما الضرب الثاني وهو تشبيه التمثيل الذي يحتاج إلى شحيد الذهن وإعمال للفكر لأنه ليس بينا بنفسه بل يتطلب تحصيله لضرب من التأويل والعلة في ذلك أن المشبه لم يُشارك المشبه به في الصفات، وذلك "الضرب يتحقق فيما إذا كان الوجه ليس حسيًا، ولا من الغرائز والأخلاق والطباع العقلية الحقيقية، ولكنه يكون عقليًا غير حقيقي، سواءً أكان مفرداً أم مركباً أي غير متقرر في ذات الموصوف". كقولك هذه حجة كالشمس في الظهور، أي حجة واضحة لا لبس فيها ولا غموض ولا يُنكرها إلا من يكون بينه وبينها غشاوة أو حجاب، فالحجة المفحمة الدامغة لا يغالي في نُكرانها إلا من هو مدخول في عقله أو جاحد مُباهت ومُسرف في العناد، كما أنَّ الشَّمسَ الطَّالعة لا يشكُّ فيها ذو بصرٍ ولا يُنكرها إلا من لا عذر له في إنكارها. فقد احتجنا في تحصيل الشَّبه الذي أثبتته بين الحجة والشمس إلى مثل هذا التأويل.

وتشبيه التمثيل يتفاوت تفاوتاً شديداً على حد وصف الإمام عبد القاهر فممنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجها إلى فضل روية ولطف فكرة. ثم يعود عبد القاهر أدراجه إلى التشبيه والتمثيل ويقرر حقيقة مفادها أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيل، ويذكر علة هذا الانقسام مبينا أن الاشتراك في صفة التشبيه يقع مرة في نفسها وحقيقة جنسها، ومرة في حكم لها ومقتضى؛ فالخذ يشارك الورد في الحمرة نفسها، ويجدها في الموضوعين بحقيقتها، واللفظ يشارك العسل في الحلاوة لا من حيث جنسه بل من جهة حكم وأمر يقتضيه، وهو ما يجده الذائق في نفسه من اللذة، والحالة التي تحصل في النَّفس إذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل إليه الطبع ويقع منه بالموافقة.

ومن مجموع ما ساق من أمثلة وما استدل من شواهد بانته حصاته المتقدمة وعبقريته التي لا يغالي فيها أحد حينما فصل القول في التشبيه العقلي الذي ينتزع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيعين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لها في حالة الأفراد لا سبيل الشيعين يجمع بينهما وتحفظ سورتهما. ومثال ذلك هو قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاتِ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾¹. فالشبه؛ منتزع من أحوال الحمار وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم، ومستودع ثمر العقول ثم لا يحسن بما فيها ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء، ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه، ويكدّ جبينه، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض. ثم ينتقل بعد ذلك الإمام المفوّه العبارة الرشيقة الأسلوب للحديث عن التشبيه المعقود على امرين مثل قولهم «هو يصفو ويكدر» و«يمر ويحلو»

¹ _ الجمعة، الآية 5.

و«يشج ويأسوا» و«يسرج ويلجم» مفندا أن تكون أي واحدة من هذه الصفات ممتزجة بالأخرى. ثم يعود عبد القاهر للحديث عن الفوارق التي تتمثل بين التشبيه وبين التمثيل، فيرى أن المثل الحقيقي والتشبيه-الذي هو الأولى بأن يسمى تمثيلا لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر، حتى إن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقليا محضا كانت الحاجة إلى الجملة أكثر، وقد فرق بين التمثيل-الذي وجه الشبه فيه منتزع من مجموع الجمل من غير فصل بينها ودون إمكانية تحقق هذا الفصل- وبين التشبيه المتعدد، كقول المرقش الأكبر:

النَّشْرُ مَسْكٌ وَالْوَجُوهُ دَنَانِيرٌ وَأَطْرَافُ الْأَكْفُ عَنَمٌ

فالبيت يشتمل على تشبيهات متوالية يمكن الفصل بينها وليس على تشبيه مركب ينتزع وجه الشبه فيه من عدّة أمور كما هو الحال في التمثيل. ويقرر عبد القاهر الجرجاني في ثنايا حديثه عن التشبيه حقيقة تلقفها أعلام البلاغة من بعده أن التشبيه إذا جاء من غير جنس المشبه وجاء غريبا نادرا كان ذلك ألطف معنى وأحسن وقعا في النفس، كما يرى أن التباعد بين الشئيين الذين يتألف منهما طرفا التشبيه كلما كان أشد كان إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس له أشد طربا، ويعلل لذلك بقوله: إن الأشياء المشتركة في الجنس المتفقة في النوع تستغنى بثبوت الشبه بينها وقيام الاتفاق فيها عن تعمل وتأمل في إيجاب ذلك لها وتثبيته فيها، وإنما الصنعة والحدق، والنظر الذي يلفظ ويدق في ان يجمع أعناق المتنافرات والمتباينات في ربة ويعقد بين الأجنبية معاهد نسب وشبكه. بيد أنه اشترط لذلك شرطا وهو: أن تصيب بين مختلفين في الجنس وفي ظاهر الأمر شباها صحيحا معقولا، وتجد للملائمة والتأليف السوي بينهما مذهبا وإليهما سبيلا، وحتى يكون اثلا فهما الذي يوجب تشبيهك، من حيث العقل والحدس، وفي وضوح اختلافهما من حيث العين والحس.

وعبد القاهر الجرجاني الذي تفجرت حصاته بأذكي حسٍ وأرجح بصيرة والذي أسعفته قريحته الجياشة لإيراد كل تلك الشواهد التي يفوق عددها الإحصاء، نجده في سياق حديثه عن التشبيه وضروبه قد تطرق للتشبيه الخفي وقضية الإجمال والتفصيل في التشبيه والتمثيل فيذكر أن الجملة أسبق إلى النفوس من التفصيل، ثم يتحدث عن التشبيه المركب وهو ما يكثر فيه التفصيل، وذلك إذا كان التشبيه مركبا من شيئين أو أكثر موضحا انه ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: أن يكون شيئا يقره المشبه ويضعه ولا يكون. ومثال ذلك النرجس «بمداهن در حشوهن عقيق» وتشبيه الشقيق بأعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد، لأنك في هذا النحو تحصيل الشبه بين شيئين تقدر اجتماعهما على وجه مخصوص وبشرط معلوم.

ثانيهما: أن تعتبر في التشبيه هيئة تحصل من اقتران شيئين ذلك الاقتران مما يوجد ويكون، ومثاله قوله:

غدا والصبح تحت الليل بادِ كطرف أشهب ملقى الجلال

قصد الشبه الحاصل لك إذا نظرت إلى الصبح والليل جميعا، وتأملت حالهما معا، وأراد ان يأتي بنظير للهيئة المشاهدة من مقارنة أحدهما بالآخر، ولم يُرد أن يشبه الصبح على الانفراد والليل على الانفراد. ثم يعقد فصلا بعد ذلك يوفي فيه الحديث عن الاستعارة ومفهوم التمثيل موضحا أن الاستعارة حدّها يتمثل في أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي ثم ينقل عن ذلك الأصل على الشرط المذكور. وهذا الحد لا يجيء من معنى التمثيل من أنه الأصل في كونه مثلا وتمثيلا هو التشبيه المنتزع من مجموع أمور والذي لا يحصل إلا في جملة من الكلام أو أكثر. كما ان الاستعارة تقوم على التشبيه المقصود به المبالغة، ومن الفوارق بين الاستعارة والتمثيل أن المستعير يعمد إلى نقل اللفظ عن أصله في اللغة إلى غيره ويجوز به مكانه الأصلي إلى مكان آخر لأجل الأغراض المذكورة من التشبيه والمبالغة والاختصار، والضرار بالمثل لا يفعل

ذلك ولا يقصده ولكنه يقصد تقرير الشبه بين الشئيين. ثم إن الاستعارة من المجاز أما التشبيه فيدخل في الحقيقة لأن له حروفاً وأسماء وأفعالاً تدل عليه فإذا صرح بذكر ما هو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة. كما أن الاستعارة تقوم على معنى الادعاء فأنت تدعي معنى اللفظ المستعار للمستعار له والمثل لا يوجب فيه مثل هذا فلا هو يقتضي تردد اللفظ بين احتمال شئيين ولا أن يدعى معناه للشئ ولكن يدع اللفظ مستقراً على أصله.

ثم يمضي الإمام بعد هذا الشرح المسهب والاستدلال البديع للحديث عن السرقات مقسماً قبل الخوض عنها المعاني إلى قسمين: قسماً عقلياً والآخر تخيلياً... وهكذا يمضي عالمنا القوي العارضة في شرحه لهذا المبحث الذي أتحفنا فيه بسعة عقله الوهاج، وعصارة جهده التي صاغت له أكاليل المجد وكفلت له بأن يدوي اسمه في مجالس العلوم ويتألاً في قلائد النور.

المطلب الثالث: مصادره في الكتاب وأهم الملاحظات والمآخذ عليه.

أولاً: مصادر عبد القاهر في كتابه "الأسرار".

"تشكّلت ثقافة عبد القاهر الجرجاني من المعارف النحوية في ضل تصنيفه للبحوث البلاغية، فهو يعد أهم نحوي أثر في البلاغة العربية وأساس البحث فيها، ولم يكن لعبد القاهر أن ينجز تأليفه البلاغية لو لا المرجعيات النحوية التي تقدّمته زمنياً، فلقد اعتمد في بناء تصوراته النظرية والتطبيقية على معايير سابقة كان لها الفضل في تشكيل مادته البلاغية، إذ أفاد منها على نحو عميق، وتمثلها بمجموعها ليصوغ منها نظرتة البلاغية، وتصوراته في النظرية الأدبية والبلاغية"¹.

¹ _ عبد الله قريم ساكت السرحان، مصادر الجرجاني النقدية دراسة في كتاب أسرار البلاغة، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك-الأردن قسم الآداب، قسم اللغة العربية، 2003م، ص14.

"ولقد إغترف عبد القاهر الجرجاني من علم البلاغة، ما أتاح له أن يُكَوِّن ثروة بلاغية ضخمة، فبفضل كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، أصبح للعربية علم بلاغةٍ محدّد، ومُقتنّ له مرجعه وقاموسه.

ولم يُثم هذا الصَّرحُ الشامخ من الهواء، بل ارتكز على ما وضعه العلماء قبله فجمَع ما تناثر في تلك الكُتب، وقتَّنه وشرحه وشرحا علميا وافيا¹.

يذكر عبد القاهر القاضي أبا الحسن علي بن عبد العزيز في تعليقه على بيت سعد بن ناشب وما يحدثه تصوير المعنى من أثر في نفس السامع:

إذا همَّ ألقى بين عينيه همَّه ونكَّب عن ذكر الحوادث جانبا

امتلاَّت نفسك سرورا وأدركتكَ تربة «بالفتح والضم» كما يقول القاضي أبو الحسن لا تملك دفعها.

وفي موضع آخر يقول في تعليقه على بيت ابن المعتز:

بياضٌ في جوانبه احمرارٌ كما احمرَّت من الخجل الخدودُ

وقال القاضي أبو الحسن: لو اتفق له أن يقول احمرار في جوانبه بياض لكان قد استوفى الحسن ويعقب بقوله وذلك لان خد الخجل هكذا يحدِّق البياض فيه بالحمرة، لا الحمرة بالبياض.

¹ _ هند جميل صالح نايتة، مصادر الإمام عبد القاهر في بلاغته، بحث مقدّم لنيل درجة الماجستير في علوم البلاغة، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، 1407هـ، ص220.

ويذكر القاضي أبا الحسن وهو يتكلم في الفرق بين الاستعارة والتشبيه، ويقول اعلم أن الوجه الذي يقتضيه القياس وعليه يدل كلام القاضي في "الوساطة" ألا نطلق الاستعارة على نحو قولنا: زيدٌ أسد، وهندٌ بدرٌ، ولكن نقول هو تشبيهه.

هذه مواضع ثلاثة ذكر فيها القاضي أبا الحسن وهي مختلفة فهناك استعارة بلفظه أصاب فيها القاضي وصف أثر الصورة في نفس السامع وهذه تحرير تشبيه جاء من كلام الشاعر منحرفاً عن الشيء الموصوف، وهذا تحرير مسألة علمية اختلف فيها الناس وكان كلام القاضي أقرب إلى القياس¹.

تأثر الجرجاني بالجاحظ «ت255هـ» في نظرية النظم التي توسع فيها وبنى عليها رأيه في إعجاز القرآن واللفظ والمعنى والتعبير العادي والمزخرف. ونقل كثيراً من أقواله وآرائه ووافق في بعضها ورد عليه في البعض الآخر منها تعليقه على رأيه في قول الشاعر:

وقبرٌ حربٍ بمكانٍ قفرٍ وليسَ قربَ قبرِ حربِ قبر

وقول ابن يسير:

لا أذيل الآمال بعدك إني بعدها بالآمال جدُّ بخيل

كم لها موقف باب صديق رجعتُ من نداءه بالتعطيل

لم يضرها والحمد لله شيء واثنت نحو عزف نفسٍ ذهول

¹ _ محمد محمد أبو موسى، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ط1، 1418هـ-1998م، مكتبة وهبة-القاهرة، ص24.

قال الجاحظ: فتفقد النصف الأخير من هذا البيت فإنك ستجد بعض ألفاظه تتبرأ من بعض. ويزعم أن الكلام في ذلك على طبقات فمنه المتناهي في الثقل المفرط فيه كالذي مضى، ومنه أخف منه كقول أبي تمام:

كريمٌ متى أمدحه أمدحه والورى معي وإذا لمته لمته وحدي

ومنه ما يكون فيه بعض الكلفة على اللسان إلا أنه لا يبلغ أن يعاب به صاحبه ويشهر أمره في ذلك ويحفظ عليه. ويزعم أن الكلام إذا سلم من ذلك وصفا من شوبه كان الفصيح المشاد به والمشار إليه، وإن الصفاء أيضا يكون على مراتب يعلوا بعضها بعضا وأن له غاية إذا انتهى إليها كان الإعجاز.

والذي يبطل هذه الشبهة إن ذهب إليها ذاهب أنا إن قصرنا صفة الفصاحة على كون اللفظ كذلك وجعلناه مراد بها لزمنا أن نخرج الفصاحة من حيز البلاغة ومن أن تكون نظيرة لها.

واستشهد بنثر الجاحظ كقوله "جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعرفة نسبا وبين الصدق سببا وحب إليك التثبت وزين في عينك الإنصاف وأذاقك حلاوة التقوى وأشعر قلبك عز الحق وأودع صدرك برد اليقين وطرد عنك ذلّ اليأس وعرفك ما في الباطل من الذلّة وما في الجهل من القلّة".

ونقل كلامه في اللفظ والمعنى، واستشهد بقوله في نفي أن الأول لم يدع للآخر شيئا ومن الأبيات التي نقلها بعض الحجازيين، ورجع إليه في الحديث عن الصورة وقرر انها من قول الجاحظ.

وهناك إشارات أخرى إلى الجاحظ ونقل لآرائه ونثره وكلامه، ويتضح بذلك مدى تأثيره به والاعتماد عليه والاستشهاد بأقواله أو الأبيات التي ذكرها في البيان والتبيين والحيوان. وإذا كان

قد رفض بعض تلك الآراء فليس معناه أنه يعارض الجاحظ الذي قيل عنه أنه من أنصار اللفظ، بينما كان عبد القاهر من أنصار المعنى، وقد ظهر فيما سبق ان رجلين ينحوان نحواً واحداً وأنها من أنصار النظم أو الصياغة والتصوير بل تكاد نظرية النظم تكون صورة مفصلة لرأي الجاحظ الذي بدأه في كتابه "نظم القرآن" وأشار إليه في كتبه الأخرى فكان في ذلك ممهداً للقاضي عبد الجبار والشيخ عبد القاهر في إعجاز القرآن بنظمه الذي فاق كل نظم.

"كان سيويوه «ت180هـ» حجر الأساس في بناء البلاغة العربية بما ذكره من موضوعات تدخل في علم المعاني: كالحذف والزيادة والتقديم والتأخير والقلب... ولم يفته أن يتناول أسرار التركيب وتأليف الكلمات وصوغ العبارات، وإبراز الفرق بين تعبير وآخر، وإن اهتمامه لم يكن قاصراً على أواخر الكلمات وبيان إعرابها وبنائها، وإنما تجاوز ذلك إلى نظم الجمل. فكان سيويوه أول من نبه إلى التلازم النحوي والبلاغي في دمجها للقضايا النحوية والبلاغية في أطرٍ واحدة. وقد اهتم بالنظم في الجمل، ذلك النظم الذي أصبح نظرية خطيرة على يد عبد القاهر الجرجاني بعد أن أطنب في توضيحها وتفصيلها وتطبيقها على كثير من أبواب البلاغة، والحقيقة أنه لا مجال للمقارنة بين النظم عند سيويوه وعبد القاهر. فالنظرية تطورت بتطور الأزمان، حتى أصبحت واضحة الملامح كما في دلائل الإعجاز.

ولعلّ الجرجاني في أسرار البلاغة أصاب الغرض الذي هدف إليه سيويوه من خلال فساد النظم وحال الكلام راجع إلى سوء التأليف وأخذ ذلك الجرجاني، وأعمل فيه ذهنه المتقد عندما بين الفضيلة في البيان فإن الألفاظ لا تفيد حتى تألف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب: "فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدا كيف ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد وبنسقه المخصوص أبان لمراد، نحو ان تقول في:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

"منزل قفا ذكرى من نبك حبيب"، أخرجته من كمال البيان إلى مجال الهذيان"¹.

فالتأليف له قيمته في هذا المقام، ولا يكون التأليف متناغما إلا بعد أن يتحصل الحكم في اختصاص التركيب، والترتيب أوجب وضع المراتب والمنازل في الجمل المركبة، وأقسام الكلام المدونة"².

ونقل كلام ابن قتيبة «ت276هـ» في اللفظ والمعنى من غير أن يشير إليه، قال وهو يتحدث عن الذين أفردوا اللفظ عن المعنى: "والذي له صاروا كذلك انهم حين رأوهم يفردون اللفظ عن المعنى ويجعلون له حسنا على حده ورأوهم قد قسوا الشعر فقالوا: أن منه ما حسن لفظه، ورأوهم يصفون اللفظ بأوصاف لا يصفون بها المعنى ظنوا أن اللفظ من حيث هو لفظ حسن ومزية ونبلا وشرفا"، وهذا ما قاله ابن قتيبة حينما قسم الشعر هذا التقسيم.

ونقل من كتاب الكامل للمبرد «ت285هـ» تفسيره لبيتى القطامي:

لم تلقَ قوما هم شر لأخوتهم منا عشية يجري بالدم الوادي

نقريهم لهذميّاتٍ نقدٌ بها ما كان خاط عليهم كل زراد

وتفسيره لقول الشماخ:

إذا ما رابة زُفعت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمين

¹ _ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص10.

² _ عبد الله قريم ساكت السرحان، مصادر الجرجاني النقدية دراسة في كتاب أسرار البلاغة، ص21.

ولا يبعد أنه أخذ من كتابه الآخر "المقتضب" الذي عُني بالأساليب النحوية وبعض الفنون البلاغية التي تخرج إليها، ومما يرجح هذا الرأي انه كان في كتابه دلائل الإعجاز يفهم النحو كما كان يفهمه العرب الأوائل قبل أن تفسد الأذواق وتموت المواهب، وكذلك كان المبرد في "المقتضب".

ونقل عن كتاب الجماهرة لابن دريد «ت321هـ» قوله في بيت الشعر:

سأمنعها او سوف أجعل أمرها إلى ملك أظفاره لم تشقق

قال: "هو في حد التشبيه والاستعارة، لأن المعنى على أن الاظلاف لمن يربأ بالملك عن مشابهته كأنه قال: اجعل أمرها إلى ملك لا إلى عبدٍ جاف متشقق الاظلاف. ويدل على ذلك أن أبا بكر بن دريد قال في أول الباب الذي وضعه للاستعارة: يقول للرجل إذا عابوه جاءنا جافيا متشقق الاظلاف.

وقال عن إدخال بعض أهل اللغة ما ليس طريق نقله التشبيه في الاستعارة: "وأما ما تجده في كتب اللغة ما ليس طريق نقله التشبيه في الاستعارة كما صنع أبو بكر ابن دريد في الجماهرة فإنه ابتدأ بابا فقال: "باب الاستعارات" ثم ذكر فيه أن الوغى اختلاط الأصوات في الحرب ثم كثرت وصارت الحرب وغى وأنشد:

إضمامة من ذودها الثلاثين لها وغى مثل وغى الثمانين

يعني اختلاط أصواتها. وذكر قوله: "رأينا الغيث والسماء" يعني المطر، وذكر ما هو أبعد من ذلك فقال: الخرس ما تطعمه النفساء ثم صارت الدعوة للولادة خرسا، والأعدار: الختان، ويسمى الطعام للختان أعدارا، وإن الطعينة أصلها المرأة في اليهودج ثم صار اليعير والهودج طعينة، والخطر ضرب البعير بذنبه جانبي وركيه ثم صار ما لصق من البول بالوركين خطرا، وذكر

أيضا الرواية بمعنى المزايدة والعقيدة، وذكر فيما بين ذكره لهذه الكلم أشياء هي استعارة على الحقيقة على طريقة أهل الخطابة ونقد الشعر لأنه قال: الظمأ العطش وشهوة الماء ثم كثر ذلك حتى قالوا: "ظمئتُ إلى لقاءك" وقال: الوجور: ما أوجرتَه لإنسان من دواء أو غيره ثم قالوا: أوجره الرمح إذا طعنه في فيه.

فالوجه في هذا الذي رأوه من إطلاق الاستعارة ما هو تشبيه كما هو شرط أهل العلم بالشعر، وعلى ما ليس من التشبيه في شيء ولكنه نقل اللفظ عن الشيء إلى الشيء بسبب اختصاص وضرب من الملابس بينهما وخلط أحدهما بالآخر انهم كانوا نظروا إلى ما يتعارفه الناس في معنى العارية وأنها شيء حوّل عن مالكه ونُقِلَ عن مقرّه الذي هو أصل في استحقاقه إلى ما ليس بأصل ولم يُراعوا عرف القوم¹.

وذكر الدكتور محمد عبد المنعم الخفاجي أن عبد القاهر أورد رأي قدامة ابن جعفر «ت337هـ» في "أن أعذب الشعر: كذبه" وحلله وشرحه، وليس الأمر كذلك لان هذا القول قديم عرفه الأوائل وبنوا عليه القول في المبالغة.

وقال إنه عرف الكناية كما عرفها قدامة، وهو صحيح وإن كان قدامه يسميها الارداف، وهي عندهم من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى. وفي تعريفها إشارة إلى لفظة الردف، وإن كان عبد القاهر وغيره من البلاغيين المتأخرين قد استحسنوا مصطلح الكناية وأداروه في كتبهم².

ونقل عن المرزباني «ت384 أو 388هـ» صاحب الموشح في عدة مواضع.

¹ _ يُنظرُ؛ أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونفده، ص274-278.

² _ المرجع نفسه، ص279.

ونقل عن كتاب الموازنة للآمدي «ت371هـ» تفريقه بين الاستعارة والحقيقة في ألفاظ اللغة، قال: "قال أبو القاسم الآمدي في قول البحري:"

فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورق وحاك ما حاك من وشي وديياج

صوغ الغيث وحوكه النبات ليس باستعارة بل هو حقيقة ولذلك لا يقال: هو صائغ ولا كأنه صائغ وكذلك لا يقال: حائك وكأنه حائك. على أن لفظة "حائك" خاصة في غاية الركافة إذا أخرج على ما أخرج عليه أبو تمام في قوله:

إذا الغيث غادى نسجه خلت أنه خلت حقب خرس له وهو حائك

وهذا قبيح جدا، والذي قاله البحري: وحاك ما حاك حسن مستعمل فانظر ما بين الكلامين لتعلم ما بين الرجلين¹.

ونقل عن أبي أحمد العسكري «ت382هـ» تسمية التمثيل بالمماثلة وقال "وهذه التسمية توهم انه شيء غير المراد بالمثل والتمثيل وليس الأمر كذلك" وتأثر بأبي هلال العسكري «395هـ» صاحب كتاب الصناعتين ونقل عنه سرقة أبي نواس من أبي خراش، قال: "وحكى العسكري في صنعة الشعر أن ابن الرومي قال، قال للبحري: قول أبي نواس:

ولم أدري من هم غير ما شهدت لهم بشرق سابط الديار البسابس

مأخوذة من قول أبي خراش الهذلي:

ولم أدري من ألقى عليه رداءه سوى انه قد سلّ من ماجد محض

قال: فقلْتُ: قد اختلف المعنى. فقال: أما ترى حذو الكلام حذوا واحدا.

¹ _ المرجع نفسه، ص280.

ويرى محمد خلف الله أحمد أن بين أبي هلال وعبد القاهر صلة في التفكير السيكولوجي. وقد بنى الأول تصوره لفضل الاستعارة على فكرة التأثير النفسي وهي الفكرة التي قام عليها كتاب عبد القاهر، ولكن بين المؤلفين فرق ظاهر له دلالاته، ذلك أن العسكري قليل التوسع في النواحي النظرية كثير الحفل بالشواهد والنصوص وبالموازنة بينهما، أما عبد القاهر فخلاف ذلك تهمة النظرية أولاً يتعهدا بالشرح والتقدير والاعتراض ثم يجلب النص ليؤيد وجهة النظر، وهو إلى ذلك شديد الحرص على الاستعانة بالقارئ وذوقه وما يستخفه من ارتياح وطرب في حين أن العسكري لا يعدو في شرح أمثله من أن يقول: إن الاستعارة في كل منها أبلغ من الحقيقة¹.

وكانت لعبد القاهر بالذين كتبوا في إعجاز القرآن، من ذلك ما كتبه أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي «ت306هـ» في "إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه" وقد اهتم به عبد القاهر وشرحه مرتين، ولا يبعد أنه تأثر به.

وما كتبه أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي «ت388هـ» الذي ذهب إلى أن القرآن معجز لأنه "جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني"، وقد استفاد منه كثيراً خاصة في التأثير النفسي للقرآن الكريم.

وما كتبه أبو بكر محمد أبو الطيب الباقلائي «ت403هـ» في كتابه "إعجاز القرآن" وذهابه إلى أن كتاب الله معجز بأسلوبه ونظمه البديع، قال: "فأما شأن نظم القرآن فليس له مثال يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً كما يتفق للشاعر البنت النادر والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب والشيء القليل العجيب"².

¹ _ المرجع نفسه، ص 287-288.

² _ المرجع نفسه، ص 289-290.

لقد تناول ابن جني «ت392هـ» التعقيد وبين أنه أثر من آثار الإخلال بقواعد النحو وعدم تطبيقها، فعلى الشاعر أو الناثر لكي يستقيم كلامه، ويتضح معناه أن يلتزم بمراعات قواعد النحو وملاحظة تطبيقها. فإذا أخل بذلك فقد ضيع حلاوة النظم، وأجهد السامع في فهم المراد. وقد طرح قضية التقديم والتأخير وفصل بين المبتدأ والخبر... وغير ذلك من أبواب البلاغة، وقد تأثر به الجرجاني خاصة في منهجه.

كان عبد القاهر يؤلف وأفكار السابقين مهضومة في فكره يستحضرها وقتما يستلزم الأمر للمناقشة والاستشهاد أو الاستئناس، فلم يكن يؤلف وكتب الآخرين مبسوطه بين يديه، ولكنه كان صاحب فكر وقضايا يطرحها ومصنفات الآخرين من خلفه بعد ان تمثلها في عقله وكان أكبر اهتمامه بفكر الجاحظ وابن جني وسيبويه، وما اقتبسه من منهج ابن جني وفكره كان أكبر مما اقتبسه من غيره، فإن منهج ابن جني في مزج اللغة بالفكر كان حاضرا في عقل الشيخ وهو يفسر النظم وتطبيقاته وظواهره، كما أن تأثيره بالخطابي ظاهر في أصل فكرة النظم، وصلة البلاغة بالإعجاز، وعدم الاكتفاء في ذلك بالأقوال المجملة وأما تأثيره بالجاحظ في شيء من ذلك فلا نستطيع القطع به مع ضياع أهم ما كتبه بهذا الشأن، وهو كتابه "نظم القرآن"، وإن كان تأثيره به في العلم بالشعر ظاهر بين حتى يفوق غيره في هذه الناحية كما يذكر شيخنا أبو موسى.

وأما تأثيره بالأمدي والقاضي الجرجاني، فكان ظاهرا في نقد الشعر وقد استثمر عبد القاهر الفكر النقدي للموازنات عندهما في قضية الإعجاز؛ إذ رأى ضرورة تمرس الباحث في الإعجاز بالمفاضلة بين شعر وشعر، ومعرفة طبقات الكلام ودرجاته ليكون مقدمة للنظر في نظم الشعر ونظم القرآن ليتبين الفصل والفرقان، وتأثر عبد القاهر بالرماني كان متوازنا بين الإفادة منه في باب الاستعارة والإيجاز، والرد عليه في عده تلاؤم الحروف من البلاغة التي يفسر بها الإعجاز.

ولا يخفى تأثر عبد القاهر بالقاضي عبد الجبار رغم استدراكه عليه في تعريف الفصاحة التي فسر بها الإعجاز تعريفاً يوهم التعلق بالألفاظ، ومع الموقف المتشدد لعبد القاهر من الفكر الاعتزالي، فلقد كان للمعتزلة فضل لا يستهان به في إثارة كوامن الطاقات الفكرية للرد عليهم.

وحاصل القول في هذا أن اتكاء عبد القاهر على عقله كان أكبر من اتكائه على الآخرين وهو بذلك في طليعة النماذج المجددة في الحركة العلمية قديماً.

ثانياً: أهم الملاحظات والمآخذ على الكتاب.

فإنه ومع احتمال كل عملٍ بشريٍّ للخطأ والصواب، إلا أن أقلّ الخطأ ما وقع من هؤلاء المحققين كالجرجاني وغيره من الرعيل الأول في علوم العربية، إذ أن كل ما أخذ على عبد القاهر في أسرار البلاغة مردودٌ عليه من جماعة من أصحاب البلاغة بإفاضة.

ثم إن كتاب "أسرار البلاغة" قد تبوأ منزلةً ساميةً بين كتب البلاغة جميعها، وذلك قد يعود إلى أن عبد القاهر قد أسس فيه لعلم البلاغة، وأتى بنظريّةٍ لم يسبقه إليها سابقٌ من قبل، وهكذا فإنها وإن وُجدت أخطاءً فإن ما فعله عبد القاهر يجعل منها لا شيء! والله أعلم.

المبحث الثالث: تلخيص كتاب "أسرار البلاغة".

افتتح عبد القاهر كتابه " الأسرار " بحديثه عن فضيلة البيان فقال: إعلم أن الكتاب¹ هو الذي يعطي العلوم منازلها، ويبين مراتبها، ويكشف عن صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويدل على سرورها، ويبرز مكنون ضمائرها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان، ونبه فيه على عظم الامتنان، وقال عزّ من قائل: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}²، فلولا له لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه، ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزهير العقل كمائمه [...] ويقرّر كفياتها التي تتناولها المعرفة إذا سمّت إليها³.

ثم انتقل إلى الحديث عن اللفظ والمعنى فأشار إلى أن البيان لا يقوم باللفظ وحده فقال: "ومن البين الجلي أن التباين في هذه الفضيلة، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة، ليس بمجرد اللفظ. كيف؟ والألفاظ لا تفيد حتى تُؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجهٍ دون وجه من التركيب والترتيب. فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدداً كيف جاء واتفق، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بُني، وفيه أُفرغ المعنى وأُجري، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد، نحو أن تقول في "فقا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" «منزل فقا ذكرى من نبك حبيب» أخرجته من كامل البيان، إلى مجال الهديان. نعم، وأسقطت نسبته من صاحبه وقطعت الرحم بينه وبين منشئه [...]، ولا يُتصوّر في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير، وتخصّص في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وضعت

¹ _ وفي طبعات أخرى، جاءت بلفظة "الكلام".

² _ الرحمان 1-4.

³ _ أسرار البلاغة، ص9.

المراتب والمنازل في الجمل المركبة، وأقسام الكلام المدونة، فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً، أو يستجيد نثراً [...]، فاعلم أنه أمرٌ يقع من المرء في فؤاده¹.

إنَّ لاستحسان اللفظ عند الجرجاني نمطٌ واحدٌ، "وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه النَّاسُ في استعمالهم، ويتداولونه في زمانهم، ولا يكون وَحْشِيًّا غريباً، أو عامياً سخيلاً"²، ومثال ذلك قول العامة "أَشْعَلَتْ" و"انفسد". وقال الجرجاني بأنه شرطٌ هذا الشرط لأنه ربما اسْتُسْخِفَ اللفظُ بأمرٍ يرجعُ إلى المعنى دون مجرّد اللفظِ، وضرب على ذلك مثلاً فقال: "كما حُكي من قول عُبيد الله بن زياد لما دُهِشَ: «افتحوا لي سيفي». وذلك أن «الفتح» خلاف «الإغلاق»، فحقه أن يتناول شيئاً هو في حكم المغلق والمسدود، وليس السيف بمسدودٍ، وأقصى أحواله أن يكون كونه في الغمد بمنزلة كون الثوب في العكم"³.

● فصل في التجنيس:

الجناس وهو مما لا يتعدى الحسن والقبح فيه اللفظ والجرس، وإنما فيه ما يناجي العقل والنفس ولا يستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعة حميدة ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً. ولذلك لم يستحسن قول أبي تمام:

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب

بينما استحسن «حتى نجا من خوفه ومانجا» وقول المحدث: ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعاني أمت بما أودعاني وقال: «أترك استضعفت تجنيس أبي تمام واستحسن تجنيس القائل وقول المحدث لأمر يرجع إلى اللفظ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني، ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفاً مكررة تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكورة ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد

¹ _ يُنظر؛ المرجع السابق، ص10.

² _ المرجع السابق، ص11.

³ _ المرجع السابق، ص11.

أعطاهما ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاهما. فهذه السريرة صار التجنيس وخصوصاً المستوفى منه المتفق في الصورة من حلى الشعر ومذكوراً في أقسام البديع. فقد تبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ولما وجد فيه إلا مَعْيَبٌ مستهجنٌ»¹.

إن المعنى هو الذي يستدعي التجنيس، « ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه »²، بل قد يفسد الكلام إذا عدل عن التجنيس الطبيعي الذي يتطلبه المعنى «حتى أنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه في شبيهه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره والسجع النافر ولن تجد أيمن طائراً وأحسن أولاً وآخرأ وأهدى إلى الإحسان وأجلب للاستحسان من أن ترسل المعاني على سجيته وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتسب إلا ما يليق بها ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها فأما أن تضع في نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم. فإن ساعدك الجد كما ساعد في قوله: «أو دعاني أمت بما أودعاني» وكما ساعد أبا تمام في نحو قوله:

وأنجدتُم من بعد اتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

وقوله:

هُنَّ الحمامُ فَإِنْ كَسْرَتَ عِيافَةً من حائهنَّ فَإِنَّهنَّ حِمَامُ

فذاك، وإلا أطلقت ألسنة العيب وأفضى بك طلب الإحسان من حيث لم يحسن الطلب إلى أفحش الإساءة وأكبر الذنب.

والنكتة والطرافة في التجنيس «أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من "عواصم"، والباء من قواضب في قول أبي تمام:

يمدون من أيدي عواصم عواصم تصول بأسياف قواضب قواضب

¹ يُنظر؛ المرجع السابق، ص12.

² المرجع السابق، ص15.

أنها هي التي مضت وقد أرادت أن تجيئك ثانية وتعود إليك مؤكدة حتى إذا تَمَكَّنَ في نفسك تمامها ووعى سمعك آخرها انصرفت عن ظنك الأول وَزُلَّتْ عن الذي سبق من التخيل، وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال¹.

فأما ما يقع التجانس فيه على العكس من هذا، وذلك أن تختلف الكلمات من أولها كقول البحري:

بسيوفٍ إيماضها أوجال للأعادي ووقعها آجالٌ

وكذا قول المتأخر:

وكم سبقت منه إليَّ عوارفٌ ثنائِي من تلك العوارف وارفُ
وكم غررٍ من برّه ولطائف لشكري على تلك اللطائف طائفُ

وذلك أن زيادة «عوارف»، على «وارف»، بحرف اختلاف من مبدأ الكلمة في الجملة فإنه لا يبعد كلَّ البعد عن اعتراض طرفٍ من هذا التخيُّل فيه وإن كان لا يقوى تلك القوة كأنك ترى أن اللفظة أعيدت عليك مبدلاً من بعض حروفها غيره أو محذوفاً منها².

وذم الاستكثار من هذا الفن، لأن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه إذ الألفاظ خدُم المعاني والمصرفة في حكمها³.

وذكر نوعين من هذا الفن هما: التجنيس المستوفي المتفق الصورة كقول الشاعر:

ما مات من كرم الزمان فانه يحيا لدي يحيى بن عبد الله

والمرفوع كقول الآخر: «وَدَعَانِي أُمْتُ بِمَا أُوَدَعَانِي⁴، ولم يفصل القول في الجنس، واكتفي بوضع أسس حسنة وجماله، وذكر أن تتبع هذا الفن كلام حقه فصل يوضع في قسمة التجنيس وتنويعه. «وليس في كتابه غير ما ذكرنا».

¹ _ المرجع السابق، ص 20.

² _ المرجع السابق، ص 20.

³ يُنظَرُ ذلك في الصّفحتين 21-22.

⁴ _ المرجع السابق، ص 19.

● فصل في الاستعارة:

وقدمها عبد القاهر لأنه يحلها بين فنون القول مكانة رفيعة، وحسبك أنه يقول عنها: «هي أمد ميداناً، وأشد افتناناً، وأكثر جرياناً، وأعجب حسناً وإحساناً، وأوسع سعة، وأبعد غوراً، وأذهب نجداً في الصنّاعة وغوراً، من أن تجمع شعبها وشعوبها، وتحصر فنونها وضروبها، نعم، وأسحر سحراً، وأملأ بكل ما يملأ صدرأ، ويمتع عقلاً، ويؤنس نفساً، ويوفر أنساً، وأهدى إلى أن تُهدى إليك عذارى قد تخير لها الجمال، وعني بها الكمال، [...] وهي أجل من أن تأتي الصفة على حقيقة حالها، ونستوفي جملة جمالها».

«ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة، تزيد قدره نبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلاً، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد، وحتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، وخلاصة مرموقة، ومن خصائصها، التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها» أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر».

«وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في جد البلاغة، ومعها يستحق وصف البراعة، وجدتها تفتقر إلى أن تُعيرها حلاها، [...] وصادفتها نجوماً هي بدرها، ورياضاً هي زهرها، [...] فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية، [...] إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية، حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون»¹.

ذلك تقدير عبد القاهر للاستعارة، وهو تقدير رجل يتذوق فنون البلاغة، ويضع كل فن في مكانه، ويدرك قيمة الاستعارة في رسم الإحساس وتصوير الخاطر.

¹ _ يُنظر؛ المرجع السابق، ص38-39.

ولكن ينبغي أن ندرك أن الفضيلة في الاستعارة تتفاوت تفاوتاً شديداً؛ فمنها العامي المبتذل، كقولنا: رأيت أسداً، ووردت بحراً، ومنها الخاصُّ النَّادر الذي لا يكون إلا في كلام الفحول، ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال، كقول الشاعر.

أَحَدْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحِ¹

أراد أنها سارت سيرا حثيثا في غاية السرعة، وكانت سرعة في لين وسلاسة، كأنها كانت سيولا وقعت في تلك الأباطح، فجرت بها.

والاستعارة التي تحدث عنها عبد القاهر، وجعل لها هذه المكانة المرموقة بين فنون القول، إنما هي الاستعارة المفيدة؛ فالاستعارة عنده تنقسم إلى قسمين: مفيدة، وغير مفيدة.

فالاستعارة غير المفيدة تكون حيث تراهم، قد وضعوا للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان؛ كوضع الشفة للإنسان، والمِشقر للبعير، والجحفلة للفرس، وما شاكل ذلك؛ فإذا استعمل الشاعر شيئا منها في غير الجنس الذي وضع له، فقد استعاره منه، ونقله عن أصله، وجاز به موضعه، كقول العجاج: وفاحِماً، ومرسناً مسرَّجاً.

يريد أنفا يضيء كالسراج؛ والمرسن في الأصل للحيوان؛ لأنه الموضع الذي يقع عليه الرسن². وكاستعمال الشفة للفرس، وهي موضوعة للإنسان؛ فهذا ونحوه لا يفيدك شيئا لا تسفيده من الأصل؛ فلا فرق من جهة المعنى بين قوله: ومرسنا، وقوله: وأنفا، بل الاستعارة ههنا أشبه بأن تنقصك جزءاً من الفائدة³. ولا يتصور في مثل هذه الاستعارة أن تكون من جهة المعنى، وإنما مدار أمرها على اللفظ⁴.

أما إذا كان الاستخدام لغرض معنوي، فإن ذلك من باب الاستعارة المفيدة، كقول الفرزدق:

فَلَوْ كُنْتُ ضَمِيًّا عَرَفْتَ قَرَابَتِي وَلَكِنَّ زَنْجِيًّا غَلِيظَ الْمَشَافِرِ⁵

¹ _ الأبطح: مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى.

² _ الرسن، الجبل.

³ _ يُنظَرُ؛ أسرار البلاغة، ص30.

⁴ _ يُنظَرُ؛ المرجع السابق، ص31.

⁵ _ المرجع السابق، ص33.

فهنا استخدم كلمة المشافر للإنسان، وهي للجمل؛ لأنه يريد أن يشبه الزنجي العبد بالجمل في أنه لا يفرق بين الرفيع والوضيع.

والاستعارة المفيدة هي التي تكون في المعاني، كالأمثلة التي سبق أن أوردناها، وكما سوف نورده من الأمثلة.

وقسم عبد القاهر الاستعارة المفيدة قسمين:

أحدهما: "أن تنقل الاسم عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم، فأنت تريد أن تقول: رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه؛ فتدع ذلك، وتقول: رأيت أسداً. فهناك الاسم، وهو الأسد، قد تناول شيئاً معلوماً، وهو الرجل الشجاع، ونقل الأسد عن مسماه الأصلي، وهو الحيوان المفترس، فجعل اسماً للرجل الشجاع، على سبيل الاستعارة والمبالغة في التشبيه"¹.

وثانيهما: "أن يؤخذ الاسم عن حقيقته، ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يُشار إليه، فيقال: هذا هو المراد بالاسم، والذي استعير له، وجعل خليفة لاسمه الأصلي، ونائباً منابه، وذلك كقول لبيد:

وَعْدَاةَ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ، وَقِرَّةً إِذَا أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زَمَامُهَا²

لأنه جعل للشمال يداً، ومن الواضح أنه ليس هناك شيء مشار إليه يكن أن تجري اليد عليه، كإجراء الأسد على الرجل في المثال الماضي"³.

وأراد عبد القاهر أن يدرج الاستعارة من الضعف إلى القوة؛ فرأى أن أول مراتب الاستعارة أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجوداً في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة، إلا أن لذلك الجنس مراتب في القوة والضعف، فأنت تستعير لفظ الأقوى لمن هو دونه.

¹ _ المرجع السابق، ص 40.

² _ الغداة؛ البكرة، أو ما بين الفجر وطلوع الشمس. والقرة بالكسر؛ البرد.

³ _ المرجع السابق، ص 40-41.

ومثاله: استعارة الطيران لغير ذي الجناح، إذا أردت السرعة¹، فالطيران وسرعة الجري من جنس واحد من حيث الحركة على الإطلاق.

ونوع ثانٍ يشبه هذا الضرب، وهو أن يكون الشبه مأخوذاً من صفة موجودة في المستعار له والمستعار منه على الحقيقة، وذلك قولك: «رأيتُ شمسا» تريد إنسانا يتهلل وجهه كالشمس؛ ذلك أن الشبه مراعى في التألؤ؛ ورونق الوجه الحسن مجانس "لضوء الأجسام النيرة"².

أما الضرب الثالث، وهو الصميم الخالص من الاستعارة، فأن يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقلية، كاستعارة النور للبيان، والحجة الكاشفة عن الحق، في قوله سبحانه: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾³ فإنه لا شك في أنه ليس بين النور والحجة ما بين طيران الطائر، وجري الفرس من الاشتراك في عموم الجنس؛ لأن النور صفة من صفات الأجسام محسوسة؛ وكذلك ليس بينهما ما بين الرجل والأسد في طبيعة تكون في الحيوان كالشجاعة؛ فليس الشبه الذي يجمع بين النور والبيان والحجة إلا أن القلب إذا وردت عليه الحجة صار في حالة شبيهة بحال البصر إذا صادف النور⁴.

وهذا الضرب هو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها، ولها أساليب كثيرة:

أحدها: أن يكون المشبه به مشاهداً مدركاً بالحواس، والمشبه معاني معقولة.

وثانيها: أن يكون المشبه به والمشبه محسوسين، ووجه الشبه، مع ذلك، عقلي.

وثالثها: أن يكون المشبه والمشبه به معقولين⁵.

مثال اللون الأول تشبيه البيان والحجة بالنور، وقد سبق بيانه.

ومثال الثاني قول الرسول الكريم: «إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ»⁶؛ فالشبه مأخوذ للمرأة من النبات،

وكلاهما جسم، إلا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات، وخضرته، ولا طعمه، ولا رائحته، ولا

¹ _ المرجع السابق، ص 47.

² _ المرجع السابق، ص 52.

³ _ الأعراف 157.

⁴ _ يُنظَرُ؛ أسرار البلاغة، ص 53.

⁵ _ يُنظَرُ؛ المرجع السابق، ص 54.

⁶ _ المرجع السابق، ص 55. والدمن: جمع دمنة، وهي: المذبذبة.

شكله، وصورته، بل القصد شبه عقلي بين المرأة الحسنة في المنبت السوء، وبين تلك النابتة على الدمنة، وهو حسن الظاهر في رأي العين، مع فساد الباطن؛ وطيب الفرع، مع خبث الأصل¹.

ومثال الثالث تشبيه وجود الشيء بالعدم، على معنى أنه لما قل في المعاني التي بها يظهر للشيء قدر، وبصير له ذكر، صار وجوده كلاً وجود.

وكتشبيه العدم بالوجود، على معنى أن الفاني لما خلف آثاراً جميلة تحيي ذكره صار لذلك كأنه لم يعدم².

وتشبيه المعقول بالمعقول يجيء على طريقين: أحدهما تنزيل الوجود منزلة العدم، كقوله تعالى: {أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا، فَأَحْيَيْنَاهُ}³.

والطريق الثاني أن يكون لأحد المعنيين شبه بالآخر في صفة معقولة، كما في قولهم: «لقي الموت» يريدون لقي الأمر الأشدّ الصّعب الذي هو في كراهة النّفس له كالموت؛ فقد عبّرت ههنا عن شدة الأمر بالموت، واستعرت لهذا الأمر الشديد من أجلها، والشدة ومحصولها الكراهة موجودة في كل واحد من المستعار له، والمستعار منه⁴.

تلك هي الأقسام التي أوردها عبد القاهر للاستعارة، وسوف يفرق بينها وبين التشبيه والتمثيل، ويبين مكانها من المجاز، بعد أن يتحدث عن هذه الأبواب.

ويقرر عبد القاهر أن مزية الاستعارة، والمبالغة التي تدعى لها، ليست في نفس المعنى الذي يقصد إليه المتكلم، ولكن في طريق إثباته للمعنى، وتقريره إياه.

وكل استعارة لا بد لها من قرينة تدل على أن الكلمة لا يراد بها معناها الحقيقي. وهم يجعلون هذه القرينة حالية، إذا كانت الحال التي ألقى فيها الكلام تدل على المعنى المراد، ولفظية إذا كان في الكلام ما يدل عليه.

¹ _ المرجع السابق، ص 55.

² _ المرجع السابق، ص 59.

³ _ الأنعام 122.

⁴ _ يُنظر؛ أسرار البلاغة، ص 60-62-63.

ولعلَّ عبد القاهر يرى أن الاستعارة تحتاج دائماً إلى قرينة لفظية تدلُّ على المراد، لأنَّ قرينة الحال يُكتفى بها في الاستعارات المشهورة.

ويلجُّ عبد القاهر على فكرة المعنى في الاستعارة، ولا يقفه عند ظاهر الأمر، وتغلغل إلى الأعماق، حتى يقف على ما يراد بالاستعارة، وعلى السر في أنها دائماً أبلغ من الحقيقة، فلا يطمئن إلى أنَّ المشبه به يستعار للشبه، ويأخذ معناه.

يقول عبد القاهر: «اعلم أنَّك ترى الناس وكأنهم يرون أنك إذا قلت: رأيت أسداً، وأنت تريد التشبيه، كنت نقلت لفظ «أسد» عما وُضع له في اللغة، واستعملته في معنى غير معناه، حتى كأنه ليس الاستعارة إلا أن تعمد إلى اسم الشيء، فتجعله اسماً لشبيهه [...] ويذهبون عما هو مركز في الطباع من أن المعنى فيها المبالغة، وأن يدَّعي في الرجل أنه ليس برجل، ولكنَّه أسد بالحقيقة، وأنه إنما يُعار اللفظ من بعد أن يعار المعنى، وأنه لا يشرك في اسم الأسد إلا من بعد أن يدخل في جنس الأسد، [...] ومن أجل أن كان الأمر كذلك رأيت العقلاء كلهم يثبتون القول بأن من شأن الاستعارة أن تكون أبداً أبلغ من الحقيقة، وإلا فإن كان ليس ههنا إلا نقل اسم من شيء إلى شيء، فمن أين يجب أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة، ويكون لقولنا: رأيت أسداً، مزية على قولنا: رأيت شبيهاً بالأسد؛ وقد علمنا أنه محال أن يتغير الشيء في نفسه، بأن ينقل إليه اسم قد وضع لغيره من بعد ألا يراد من معنى ذلك الاسم فيه شيء وبوجه من الوجوه».

«واعلم أن العقلاء بنوا كلامهم إذا قاموا وشبَّهوا على أن الأشياء تستحقُّ الأسماء لخواص معان فيها دون ما عداها؛ فإذا أثبتوا خاصة شيء لشيء أثبتوا له اسمه، فإذا جعلوا الرجل بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد، ولا يعدم منها شيئاً، قالوا: هو أسد، [...] ثم إنهم إذا استقصوا في ذلك نقوا عن المشبه اسم جنسه، فقالوا: ليس هو بإنسان، إنما هو أسد، [...] كما قال تعالى: { مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ }¹؛ ثم إن لم يريدوا أن يخرجوه عن جنسه جملة قالوا: هو أسد في صورة إنسان [...] ففي هذه الجملة بيان لمن عقل أن ليست الاستعارة نقل اسم عن شيء إلى شيء، ولكنها ادعاء معنى الاسم لشيء، إذ لو كانت نقلاً،

¹ _ يوسف، 31.

وكان قولنا: رأيت أسداً، بمعنى رأيت شبيهاً بالأسد، ولم يكن ادعاءً أنه أسد بالحقيقة، لكان محال أن يقال: ليس هو بإنسان، ولكنه أسد، في صورة إنسان، كما أنه محال أن يقال: ليس هو بإنسان، ولكنه شبيه بأسد، أو يقال: هو شبيه بأسد في صورة إنسان».

وهكذا يضع عبد القاهر الاستعارة في مكانها، وبين سر بلاغتها، والمبالغة فيها، وأنه ليست المسألة نقل كلمة من معنى إلى معنى: لأن ذلك يفقد الاستعارة قوتها، بل يضيع معناها؛ لأننا لو نقلنا الأسد من معناه الحقيقي إلى معنى الرجل الشجاع، لصار معنى «رأيت أسداً»: «رأيت رجلاً شجاعاً»، فتفقد الاستعارة قوتها، ولا تكون أقوى من الحقيقة في شيء، ولكن مصدر قوة الاستعارة إنما هو في ادعاء أن الرجل من جنس الأسد حقيقة، له طبيعته وصفاته.

وهكذا يخلص عبد القاهر إلى ما يريد، وهو أنه قد تبين من غير وجه أن الاستعارة إنما هي ادعاء معنى الاسم للشيء، لا نقل الاسم عن الشيء، وإذا ثبت أنها ادعاء معنى الاسم للشيء، علمت أن الذي قالوه من أنها تعليق للعبارة على غير ما وضعت له في اللغة، ونقل لها عما وضعت له -كلام قد تسامحوا فيه؛ لأنه إذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم لم يكن الاسم مزالاً عمّا وضع له، بل مقرراً عليه.

كذلك تراهم إذا تكلموا في الاستعارة لا يمتنعون من أن يقولوا: أنه أراد المبالغة، فجعله أسداً، وذلك صريح في أن الأصل فيها المعنى، وأنه المستعار في الحقيقة، وأن قولنا: استعير له اسم الأسد، إشارة إلى أنه استعير له معناه، وأنه جعل إيّاه. وهكذا لا يستطيعون أن يجعلوا الاستعارة وصفاً للفظ من حيث هو لفظ.

تلك هي مباحث الاستعارة التي نشرها عبد القاهر في كتابه: الأسرار؛ وقد جمعناها في هذا الفصل، وأرجأنا الموازنة بينها وبين غيرها من فنون القول إلى ما بعد دراسة هذه الفنون، ولنبدأ كما بدأ عبد القاهر بباب التشبيه.

• الفرق بين التشبيه والتمثيل والاستعارة:

يفرّق عبد القاهر أول ما يفرّق بين الاستعارة والتمثيل بأنّ الاستعارة تكون في لفظٍ ينقل عن أصله اللغوي، ويجري على ما لم يوضع له، من أجل شبه بين ما قل إليه وما نقل عنه، فإذا قلت رأيت أسداً، تريد به الرجل الشجاع كانت الاستعارة في كلمة الأسد.

أما التمثيل فهو التشبيه المنتزع من مجموع أمور لا تحصل إلا بجملة من الكلام أو أكثر، وقد تجد الألفاظ في الجمل التي يعقد منها جارية على أصولها وحقائقها في اللغة¹، وقرأ قوله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا، وَازْيَيْنَتْ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ }²؛ "فإنك تجد جمل التمثيل قد استخدمت ألفاظها فيما وضعت له في اللغة، وتجد التمثيل مكوّنًا هنا من جمل لا محصورا في كلمة واحدة كأمر الاستعارة، فإذا وقع في أثناء ما يعقد به المثل من الجملة والجمليتين والثلاث لفظة منقولة عن أصلها فذاك شيء لم يعتمد من جاء بالمثل"³.

"ويفرق بين الاستعارة والتشبيه الصريح بأنّ الاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه، وتطرحة، وتدّعي له الاسم الموضوع للمشبه به؛ القصد أن تبالغ فيه، بحيث تُخيل أنك رأيت نفس الأسد"⁴. كذلك لا يكون نقل اللفظ عن موضوعه من أغراض من يأتي بالتشبيه في عبارته.

"ومن ذلك يتبين أن الاستعارة ليست التشبيه، ولكنها تكون من أجل التشبيه، وهو كالغرض فيها، ولكن التشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة؛ وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غرض في الاستعارة، كذلك الاختصار والإيجاز غرض من أغراضها. ألا ترى أنك تفيد بالاسم الواحد الموصوف، والصفة، والتشبيه، والمبالغة؟ لأنك تفيد بقولك: «رأيت أسداً» و"أنك رأيت شجاعا شبيها بالأسد، وأن شبهه به في الشجاعة على أتم ما يكون، حتى أنه لا ينقص عن الأسد، فيها"⁵.

وإذا كان الشبه بين المستعار منه والمستعار له في الاستعارة من المحسوس والغرائز كان حقها أن يقال: أنها تتضمن التشبيه، ولا يقال: أن فيها تمثيلا وضربا مثل، وإذا كان الشبه عقليا

¹ _ أسرار البلاغة، ص 174.

² _ يونس، 24.

³ _ أسرار البلاغة، ص 175.

⁴ _ المرجع نفسه، ص 177.

⁵ _ المرجع نفسه، ص 175.

جاز إطلاق التمثيل فيها، وأن يقال: ضرب الاسم مثلاً هكذا، كقولنا: ضرب النور مثلاً للقرآن، والحياة مثلاً للعلم.

وليس كل تشبيه يمكن أن يتحول إلى استعارة، وإنما يجوز ذلك إذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه، ويسهل متناوله، ويكون في الحال دليل عليه، حتى يمكن المخاطب إذا أطلقت له الاسم أن يعرف ما أردت.

فإذا لم يكن سبيل إلى معرفة المقصود من الشبه فيه إلا بعد ذكر الجمل التي يعقد بها التمثيل، فإن الاستعارة لا تدخله، لأن وجه الشبه إذا كان غامضاً لم يجز أن تفسر الاسم، وتنقله إلى غير ما هو أهله، من غير أن يكون معك شاهد ينبئ عن الشبه، فلو حاولت أن تحوّل قول الشاعر:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

إلى استعارة، وأن تعامل الليل معاملة الأسد في قولك: «رأيت أسداً» لم تجد له مذهباً في الكلام؛ لأنك لا تخلو من أحد أمرين: إما أن تحذف الصفة، وتقتصر على ذكر الليل مجرداً، فتقول: إن فررت أظلني الليل، وهذا محال؛ لأنه ليس في الليل دليل على النكتة التي قصدها الشاعر من أنه لا يفوته، وإن أبعد في الهرب، لسعة ملكه، وطول يده.

وإن لم تحذف الصفة وجدت طريق الاستعارة فيه يؤدي إلى تعسف، إذ لو قلت: إن فررت منك وجدت ليلاً يُدرُّكني، وإن ظننت أن المنتأى واسع، والمهرب بعيد-قلت ما لا تقبله الطباع؛ لأن العرف لم يجر بأن تجعل الممدوح هكذا¹.

"وتحصل لك المبالغة في التشبيه إذا حذفت أدواته، فقلت مثلاً: «زيد الأسد»، فالقصد أن تبالغ، فتجعل المذكور كأنه الأسد، وتشير إلى مثل ما يحصل لك من المعني إذا حذفت ذكر المشبه أصلاً، فقلت: «رأيت أسداً»². وكان عبد القاهر يرى التشبيه المحذوف الأداة قريباً من الاستعارة في إفادة المبالغة، أو كالأستعارة في إفادة هذه المبالغة"³.

¹ _ المرجع السابق، ص 178.

² _ يُنظر؛ المرجع السابق، ص 180.

³ _ يُنظر؛ المرجع السابق، ص 182-183.

وربما وجدت الاسم وقد وقع من نظم الكلام الموقع الذي يقتضى كونه مستعاراً، ثم لا يكون مستعاراً؛ وذلك، لأن التشبيه المقصود منوط به مع غيره، وليس له شبه ينفرد به، بل الشبه منتزع من مجموع جملة من الكلام، كما في قول داوود بن علي حين خطب، فقال: «والآن أخذ القوس باريها» فإنه، وإن كان القوس يقع كناية عن الخلافة، والباري عن المستحق لها - لا يجوز أن يقال: إن القوس مستعار للخلافة؛ لأنه لا يتصور أن يخرج للخلافة شبه من القوس على الانفراد، وأن يقال: هي قوس؛ وإنما الشبه مؤلف من حال الخلافة مع القائم بها؛ ومن حال القوس مع الذي براها، وهو أن الباري للقوس أعرف بخيرها وشرّها، وأهدى إلى تصرفها؛ إذ كان العامل لها، وكذلك الجامع للصفات التي تتطلبها الخلافة يكون أهدى إلى توفيت الخلافة حقوقها، وأن يراعي في سياسة الناس العدالة والإنصاف¹. فذلك تمثيل لا استعارة.

• فصل في التمثيل:

عني عبد القاهر عناية كبرى بالتمثيل، فذكر أنّ له مظهرين: أحدهما: أن يظهر المعني ابتداءً في صورة التمثيل، وثانيهما: ما يجيء في أعقاب المعاني، لإيضاحها، وتقريرها في النفوس. وهو على الحالين يكسو المعاني أبهة، ويرفع من أقدارها، وبضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعوة القلوب إليها، ويستثير لها من أقاصي الأفئدة صباية وكلفاً، ويقسر الطباع على أن يعطيها محبة وشغفاً².

"وان أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى نحو قول البحري:

دان على أيدي العفاة، وشاسعٌ عن كل نِدِّ في التّدى وضريبٍ

كالبدرِ أفرط في العلوّ، وضوؤه للّعصبة السّارين جدّ قريبٍ

¹ - يُنظر؛ المرجع السابق، ص 187.

² - يُنظر؛ المرجع السابق، ص 88.

وفكر في حالك وحال المعنى معك، وأنت في البيت الأول لم تنته إلى الثاني، ثم قسمها على الحال وقد وقفت عليه، فإنك تعلم بعد ما بين حالتك، وشدة تفاوتهما في تمكن المعنى لديك، وتحببه إليك، ونبله في نفسك، وتوفيره لأنسك¹.

وكذلك تعد الفرق بين أن تقول: أرى قوما لهم بهاء ومنظر، وليس هناك مخبر، وتقطع الكلام، وبين أن تتبعه قول ابن لنكك:

في شجرِ السَّرْوِ منهم مثلٌ لَهُ رِوَاءٌ، وَمَالُهُ ثَمَرٌ

وقول ابن الرومي: فغدا كالخلاف: تورق للعين، ويأبى الاثمار كل الإباء «وانظر إلى المعنى في الحالة الثانية، كيف يورق شجره ويثمر، ويفترُّ ثغره، ويسم»، وتأمل كذلك بيت أبي تمام:

وإذا أرادَ الله نَشَرَ فضيلةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسودٍ

مقطوعاً عن البيت الذي يليه، برغم أن البيت واضح المعنى، ثم أتبعه بالبيت التالي، وهو:

لولا اشتعالُ النَّارِ فيما جاورثُ ما كان يُعرفُ طيبُ عَرَفِ العودِ

وانظر هل نَشَرَ المعنى تمامَ حُلَّتْه، وأظهر المكنون من حسنه وزينته، واستحق التقديم كله إلا بالبيت الأخير، وما فيه من التمثيل والتصوير².

وكذلك فرق في بيت المتنبي:

ومن يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يجدُ مُرًّا بهِ الماءُ الزُّلالا

لو كان عبّر عن المعنى بقوله: «أن الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته، ويخيل إليه في الصواب أنه خطأ»، فهل كنت تجد هذه الرّوعة؟ وهل كان يبلغ من التهجين للجاهل، والكشف عن قصه ما بلغ التمثيل في البيت؟³.

واهتم عبد القاهر بالبحث عن الأسرار التي جعلت للتمثيل هذا الأثر في النفس، فوجد لذلك أسبابا وعللا، كل منها يقتضي أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل، ويشرف ويكمل.

¹ _ يُنظَرُ؛ المرجع السابق، ص 89.

² _ يُنظَرُ؛ المرجع السابق، ص 90.

³ _ يُنظَرُ؛ المرجع السابق، ص 91.

فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جليّ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعمّا يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالطّبع.

ذلك أن المعاني التي يجيء التمثيل في عقبها على ضربين:

غريب بديع يمكن أن يخالف فيه، ويدّعي امتناعه، واستحالة وجوده، كقول الشاعر:

فإن تفق الأنام، وأنت منهم فإنّ المسك بعض دم الغزال

وذلك أنه أراد أنه فاق الأنام، وفاتهم، إلى حد بطل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة، بل صار كأنه أصل بنفسه وجنس برأسه، وهذا أمر غريب، وهو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس في الفضائل الخاصة به إلى أن يصير كأنه ليس من ذلك الجنس، فإذا قال: «فإن الملك بعض دم الغزالة» فقد أبان أن لما ادعاه أصلاً في الوجود، وبرأ نفسه من صفة الكذب، وذلك أن المسك قد خرج من صفة الدم وحقيقته، حتى لا بعد في جنسه، إذ لا يوجد في الدم شيء من أوصافه الشريفة الخاصة بوجه من الوجوه، ولا في المسك شيء من الأوصاف التي للدم.

والضرب الثاني: ألا يكون المعني غريباً نادراً، بل أن ينفي عن فعل من الأفعال التي يفعلها الإنسان-الفائدة، ويدعي أنه لا يحصل منه على طائل، ثم يمثله في ذلك بالقابض على الماء، أو الراقم فيه؛ فليس بمنكر مستبعد خطأ الإنسان في فعله أو ظنه وأمله وطلبه، كما في قول الشاعر:

فأصبحت من ليلي الغداة كقابضٍ على الماء حائته فُرج الأصابع

والشاعر هنا أراد أن يبين مقدار خيبة أمله، فعندما جاء بالتمثيل أراك رؤية لا تشك معها، ولا ترتاب، أنه بلغ في خيبة ظنه، وبوار سعيه، إلى أقصى المبالغ، وانتهى فيه إلى أبعد الغايات، حتى لم يحظ لا بما قل، ولا ما كثر¹. وذلك راجع إلى التمثيل، لأننا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس حتى مع العلم بصدق الخبر².

¹ يُنظر؛ المرجع السابق، ص 94.

² نفس المرجع.

وسبب آخر يذكره عبد القاهر مبينا به روعة التمثيل، ويراها محيطا بأطراف الباب، ذلك أن لتصوُّر الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله بابا آخر من الظرف واللفظ، ومذهبا من مذاهب الإحساس لا يخفى موضعه من العقل، وإذا استقرت التشبيهات وجدت التباعد بين الشئيين كلما كان أشد، كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب. والتمثيل أخص شيء بهذا الشأن.

«وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين، حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب [...] وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبيها في الأشخاص الماثلة [...] وينطق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، ويرك التمام عين الأضداد، ويجعل الشيء قريبا بعيداً معاً»¹.

وانظر كيف يقرب المتباعدين، وأنت تجد إصابة الرجل في الحجّة، وحسن تخليصه للكلام، قد مثلت تارة بالهناء² ومعالجة الإبل الجربى به، وأخرى بحز القصاب اللحم، وإعماله السكين في تقليعة، إذ يقولون: "يضع الهناء مواضع النُّقْبِ"³ و«يطبق⁴ المفصل»؛ فهل ترى مزيدا في التناكر على ما بين طلاء القطران، وجنس القول والبيان؟⁵

ومن أسباب جمال التمثيل أنه يأتيك من الشيء الواحد بأشياء عدة؛ فمثلاً يعطيك من القمر الشهرة في الرجل، والنباهة، والعز، والرفعة؛ ويعطيك الكمال عن النقصان، والنقصان عن الكمال؛ ويعطيك شبه الإنسان في نشأته وتمائه إلى أن يبلغ حد التمام، ثم تراجعه إذا انقضت مدة الشباب؛ وكذلك يتفرع من حالتي تمامه ونقصانه فروع لطيفة؛ وهكذا ينظر إلى مقابله الشمس، واستمداده من نورها، وإلى كون ذلك سبب زيادته ونقصه، وحصوله في المحاق، وغير ذلك من أحواله، إلى غير ذلك مما يشبه به من حيث المنظر⁶.

¹ يُنظَر؛ المرجع السابق، ص 99.

² المرجع السابق، ص 100. والهناء: القطران.

³ النقب؛ الجرب.

⁴ طبق السيف: أصاب المفصل.

⁵ المرجع السابق، ص 100.

⁶ المرجع السابق، ص 101-103.

هذا إلى أن المعنى إذا أتاك ممثلاً فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة؛ ومن المركز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه، كان نيله أحلى، وكان موقعه من النفس أجل وألطف¹. وذلك يكون بتقرير الشبه بين الأشياء المختلفة. ويمجد عبد القاهر تمجيذا لا حد له لمح الصلة بين هذه الأشياء المختلفة، إذ يرى أنه لم تأتلف هذه الأجناس المختلفة للممثل، ولم تتصادف هذه الأشياء المتعادية على حكم المشبه، إلا لأنه لم يراع ما يحضر العين، ولكن ما يستحضر العقل، ولم يُعنى بما تنال الرؤية، بل بما تعلق الرؤية، ولم ينظر إلى الأشياء من حيث تحويها الأمكنة، بل من حيث تعيها القلوب الفطنة، وعلى حسب دقة المسلك إلى ما استخرج من الشبه تكون منزلة الأدب في الحذق والإلهام والألمعية حتى يصير إماما يتبعه من يجيء من بعده.

ولكن عبد القاهر لا يرى أنك متى ألفت الشيء ببعيد عنه في الجنس فقد أصبت وأحسننت، ولكنه يشترط لذلك أن تصيب بين المختلفين في الجنس شبيها صحيحا معقولا؛ فأما أن تستكره الوصف، وتروم أن تصوّره حيث لا يتصوّر فلا؛ لأنك حينئذ تكون بمنزلة الصانع الأخرق الذي يضع في صورته ما لا يلائمها، فتخرج مضطربة تنبو العين عنها.

كذلك ليس المراد بالحذق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس أنك تقدر أن تحدث بينها مشابهة ليس لها أصل في العقل؛ وإنما المراد أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها؛ فإذا تغلغل الفكر، فأدركها، استحق صاحبها الفضل².

ويرى عبد القاهر أن من التشبيه ما يكون قريبا يقع في الخاطر لأول وهلة، كما إذا رأيت الشمس، وجرى في خاطرك استدارتها ونورها، فإنه يقع في قلبك المرأة المجلوة، وتراءى لك الشبه بينها؛ ولكنك تعلم أن خاطرك لا يسرع إلى تشبيه الشمس بالمرأة المجلوة في كف الأشلّ، كقوله:

والشمس كالمرأة في كفّ الأشلّ

¹ _ المرجع السابق، ص 104.

² _ المرجع السابق، ص 113.

فبعض التشبيه كالغائب، وبعضه كالبعيد، لا ينال إلا بعد قطع مسافة إليه، ولا يناله إلا عميق التفكير¹.

ويبين عبد القاهر السبب في سرعة بعض التشبيه إلى الفكر، وإباء البعض أن يكون له ذلك الإسراع، ويذكر لذلك علتين:

إحدهما: أن الجملة دائما أسبق إلى النفوس من التفصيل، فترى بالنظر الأول الوصف على الجملة، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر، وهكذا الحكم في السمع وغيره من الحواس، والأمر في القلب كذلك، تجد الجمل دائما تقع في خاطر أولا، وترى التفاصيل لا تحضر إلا بعد إعمال الروية، فالاشتراك في الصفة إذا كان من جهة الجملة بحيث لا يشوبه شيء من التفصيل، نحو أن كلا الشئيين أسود، فهو يقل عن أن يحتاج فيه إلى تشبيه، فإن دخل في التفصيل شيء نحو أن هذا السواد صافٍ براقٍ، احتاج بقدر ذلك إلى إعمال الفكر؛ فإن زاد تفصيله بخصوصية تحتاج إلى فضل تأمل، ازداد الأمر قوة في اقتضاء الفكر، كتشبيه سقط النار بعين الديك في قوله:

وسقط كعين الديك عاورتُ صُحْبِي²

وبمقدار لمح هذه التفاصيل يتفاضل البلغاء، ويمكن الموازنة بين بعضهم وبعض، وتفضيل البليغ يتنبه إلى التفاصيل³.

والعلة الثانية لأن يكون الشيء ثابت الصورة في النفس، أن يكثر دورانه على العيون، وأن تدركه الحواس في كل وقت أو في أغلب الأوقات، فكل تشبيه رجع إلى وصف أو صورة، أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر دائما: هو تشبيه نازل مبتدل، وما كان بالضد من هذا، وفي الغاية القصوى من مخالفته التشبيه حينئذ غريب نادر بديع، ثم تفاضل التشبيهات التي تجيء بين هذين الطرفين بحسب حالها منهما⁴.

¹ _ المرجع السابق، ص 117.

² _ المرجع السابق، ص 120، والسقطُ: ما يخرج من الزند. وعاورت: تناوبت معهم.

³ _ المرجع السابق، ص 120-121.

⁴ _ المرجع السابق، ص 122.

وعلى أساس ما في التشبيه من تفصيل وازن بين قول بشار:

كَأَنَّ مُنَّارَ النَّعْمِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وقول المتنبي:

يَزُورُ الْأَعَادِي فِي سَمَاءِ عَجَاجَةٍ أَسِنَّتُهُ فِي جَانِبَيْهَا الْكَوَاكِبُ

وقول عمرو بن كلثوم:

تَبْنِي سَنَابِكُهَا مِنْ فَوْقِ أَرْؤُسِهِمْ سَفْهًا كَوَاكِبَهُ الْبَيْضُ الْمَبَاتِيرُ

يقول عبد القاهر معلقا على هذه الأبيات الثلاثة: «التفصيل في الأبيات الثلاثة كأنه شيء واحد؛ لأن كل واحد منهم يشبه لمعان السيوف في الغبار بالكواكب في الليل، إلا أنك تجد لببت بشار من الفضل، ومن كرم الموقع، ولطف التأثير في النفس ما لا يقل مقداره، ولا يمكن إنكاره؛ وذلك؛ لأنه راعى ما لم يراعه غيره، وهو أن جعل الكواكب تهاوى؛ فأتم الشبه، وعبر عن هيئة السيوف، وقد سلبت من الأغماد، وهي تعلق وترسب، وتجيء وتذهب، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها في أثناء العجاجة، كما فعل الآخرون؛ وكان لهذه الزيادة التي زادها حظ من الدقة تجعلها في حكم تفصيل بعد تفصيل»¹.

ومما يزداد به التشبيه دقة وسحرا أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات.

والهيئة المقصودة في التشبيه على وجهين:

أحدهما: أن تقترن بغيرها من الأوصاف كالشكل واللون ونحوهما، كقول الشاعر:

وَالشَّمْسُ كَالْمَرَاةِ فِي كَفِّ الْأَشْلِ

أراد أن يرينا مع الشكل الذي هو الاستعارة، ومع الإشراق والتألق-الحركة التي تراها للشمس، إذا أنعمت التأمل، ثم ما يحصل في نورها من أجل تلك الحركة، وذاك أن للشمس حركة متصلة دائمة في غاية السرعة، ولنورها بسبب تلك الحركة تموج واضطراب عجيب؛ ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة في يد الأشل، لأن حركته تدور وتتصل، ويكون فيها

¹ _ المرجع السابق، ص 128.

سرعة وقلق شديد، حتى ترى المرأة لا تفر في العين، وبدوام الحركة وشدة القلق فيها يتموج نور المرأة، ويقع الاضطراب الذي كأنه يسحر الطرف، وتلك حال الشمس بعينها، حين تحد النظر، حتى تتبين الحركة العجيبة في جرمها وضوئها، فإنك ترى شعاعها كأنه يهيم بأن ينسبط، حتى يفيض من جوانبها، ثم يبدو له، فيرجع من الانبساط الذي بدأه، إلى انقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى الوسط¹.

وثانيهما: أن تجرّد هيئة الحركة، حتى لا يراد غيرها، ويقع فيها نوع من التركيب بأن يكون للجسم حركات في جهات مختلفة نحو أن بعضها يتحرك إلى يمين، والبعض إلى شمال، وبعض إلى فوق، وبعض إلى قدام، ونحو ذلك، وكلما كان لتفاوت الجهات التي تحرك إليها أبعاض الجسم أشد كان التركيب في هيئة المتحرّك أكثر، فحركة السهم لا تركيب فيها؛ لأن الجهة واحدة، ولكن في حركة المصحف تركيب؛ لأنه في إحدى الحالتين يتحرك إلى جهة غير جهته في الحالة الأخرى، وذلك إذ يقول ابن المعتز:

وكأنَّ البرقُ مُصحفٌ قارٌّ فانطباقاً مرة، وانفتاحاً²

وكما تعتبر هيئة الحركة في التشبيه، كذلك تعتبر هيئة السكون، فإذا وقع في شيء من هيئات الجسم في سكونه ترتيب وتفصيل لطف التشبيه، وحسن، كقول المتنبي في صفة الكلب:

يُقعِي، جلوس البدوي المصطلِي بأرْبَعِ مَجْدُولَةٍ لَمْ تُجْدِلِ

فقد اختص هيئة البدوي المصطلِي في تشبيه هيئة سكون أعضاء الكلب ومواقعها؛ ولم ينل التشبيه حظاً من الحسن إلا بأنَّ فيه تفصيلاً، من حيث كان لكل عضو من الكلب في أفعائه موقع خاص³.

والتشبيه ضربان: متعدد، ومركب.

¹ _ يُنظَرُ؛ المرجع السابق، ص132.

² _ المرجع السابق، ص118.

³ _ المرجع السابق، ص136.

فالمتمعدد هو تشبيه شيئين بشيئين، إلا أن أحدهما لا يداخل الأخرى في الشبه، كقول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدي وكرها العناب والحشف البالي¹

لأن الشاعر لم يقصد إلى أن يجعل بين الشيين اتصالاً، وإنما أراد اجتماعاً في مكان فقط، وليس لمضامنة الرطب من القلوب إلى اليابس هيئة يقصد ذكرها².

أما المركب فهو الذي تتداخل أجزاؤه بعضها في بعض، كما سبق أن مثلنا.

● فصل في التشبيه.

أول ما تعرّض له عبد القاهر في باب التشبيه أن جعله على ضربين:

أحدهما: أن يكون تشبيه الشيء بالشيء من جهة أمر بيّن لا يحتاج فيه إلى تأويل، كتشبيه الشيء بالشيء، من جهة الصورة والشكل، وكالتشبيه من جهة اللون، أو من جهة الصورة واللون، أو من جهة الهيئة، ويدخل في الهيئة حال الحركات في أجسامها، كتشبيه الذهاب على الاستقامة بالسهم السديد، وكذلك كل تشبيه يجمع بين شيئين مما يدخل تحت الحواس، كتشبيه بعض الأصوات بعض، كتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل، كتشبيه اللين الناعم بالخز، وتشبيه رائحة بعض الرياحين ببعض.

وكذلك التشبيه من جهة الغريزة والطباع، والأخلاق تدخل في الغريزة، كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة.

فالشبه في هذا كله بيّن، لا يجري فيه التأويل ولا يفتقر إليه في تحصيله، وأي تأويل يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة، وأنت تراها ههنا، كما تراها هناك؟ وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد، كما تعلمها في الرجل³.

ثانيهما: أن يكون التشبيه محصلاً بضرب من التأويل، وذلك كقولك: هذه حجّة كالشمس في الظهور: فذلك تشبه لا يتم لك إلا بتأويل، وذلك أن تقول: حقيقة ظهور الشمس وغيرها

¹ _ العناب: ثمّر أو ثمّر الأراك. والحشف: أردأ التمر.

² _ المرجع السابق، ص 141.

³ _ المرجع السابق، ص 70-71.

من الأجسام ألا يكون دونها حجاب، مما يحول بين العين ورؤيتها. والشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول؛ لأنها تمنع القلب من رؤية ما هي شبهة فيه، كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه، ولذلك توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذي يروم القلب إدراكه، فإذا ارتفعت الشبهة، وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجّة على الحكم، قيل هذا ظاهر كالشمس: أي ليس ههنا ما يمنع من العلم به، وليس ثمّة مساع للتوقف والشك فيه، وأن المنكر له أما مدخول في عقله، أو مسرف في العناد، كما أن الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصر، ولا ينكرها إلا من لا عذر له في إنكاره.

وهكذا قد احتجت في تحصيل الشبه بين الحجّة والأسس إلى مثل هذا التأوّل¹.

وما طريقة التأوّل يتفاوت تفاوتاً شديداً، فمنه ما يقرب مأخذه، ومنه ما يحتاج إلى قدر من التأمل، ومنه ما يدق ويغمض، حتى يحتاج في استخراجها إلى فضل رويّة².

فالقريب المأخذ مثل تشبيه الحجّة بالشمس، وما يحتاج إلى ضرب من التلف كقولهم في صفة الكلام: ألفاظه كالماء في السلاسة، وكالنشيم في الرقة، وكالعسل في الحلاوة.

أما ما تقوى فيه الحاجة إلى التأوّل، حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع، فكقول كعب الأشقري في وصف بني المهلب: «هم كالحلقة المفرغة: لا يُدرى أين طرفاها»³.

والتشبيه يطلق على الضربين جميعاً، أما التمثيل فهو الضرب الثاني منهما، ولذلك كان التشبيه عاماً، والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً⁴.

وإنما انقسم التشبيه هذا الانقسام؛ لأن الاشتراك في الصفة يقع مرة في نفسها وحقيقة جنسها، ومرة في حكم لها ومقتضى به فالخذ يشارك الورد في الحمرة نفسها، وتجدها في الموضوعين بحقيقتها، ولكن اللفظ يشارك العسل في الحلاوة، لا من حيث جنسه، بل من جهة حكم وأمر يقتضيه، وهو ما يجده الذائق في نفسه من اللذة، إذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل إليه الطبع فإذا شبه اللفظ بالعسل في الحلاوة، كان التشبيه ليس من جهة الحلاوة نفسها

¹ _ المرجع السابق، ص72.

² _ المرجع السابق نفسه.

³ _ المرجع السابق نفسه.

⁴ _ المرجع السابق، ص74.

وجنسها، ولكن من مقتضي لها، وصفة تتجدد في النفس بسببها، وأن السامع يجد عند وقوع هذا اللفظ في سمعه حالة في نفسه شبيهة بالحالة التي يجدها الذائق للحلاوة من العسل¹.

والتشبيه الحقيقي الأصلي هو الضرب الأول: أما الضرب الثاني ففرع له، ومرتب عليه، لأن مدار التشبيه على أنه يقتضي ضرباً من الاشتراك، ومعلوم أن الاشتراك في نفس الصفة أسبق في التصور من الاشتراك في مقتضى الصفة، فالحلاوة أولاً، ثم إنها تقتضي اللذة في نفس الذائق لها²، ثانياً.

والشبه العقلي ربما انتزع من شيء واحد، كما رأينا من انتزاع الشبه للفظ من حلاوة العسل؛ وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض، ثم يستخرج من مجموعها الشبه، ومثال ذلك قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ، ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}³، فالشبه منتزع من أحوال الحمار، وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم ومستودع ثمر العقول، ثم لا يحس بما فيها، ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء فليس له مما يحمل حظاً سوى أنه يثقل عليه؛ فالشبه كما ترى مقتضى أمور مجموعة، ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض.

وقد يجيء التشبيه معقوداً على أمرين، ولكنهما لا يتشابكان هذا التشابك، كقولهم: «هو يصفو، ويكدر»؛ لأنهم وإن أرادوا أن يجمعوا له الصفتين، لا يريدون أن إحداها ممتزجة بالأخرى⁴.

ومما ينبغي أن يعلم أن التشبيه الذي هو أولى بأن يسمى تمثيلاً، لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام، أو جملتين، أو أكثر، حتى أن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقلياً محضاً، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر، وذلك كقوله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا، وَازْيَنْتَ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا، أَتَاهَا أَمْرُنَا

¹ _ يُنظَرُ؛ المرجع السابق، ص 77.

² _ المرجع السابق، ص 78.

³ _ الجمعة، 5.

⁴ _ أسرار البلاغة، ص 80.

لَيْلًا أَوْ نَهَارًا، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنَّ لَّمْ تَعْنُ¹ بِالْأَمْسِ²، وقد كثرت الجمل فيه، حتى أنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت، والشبه منتزع من مجموعها، من غير أن يمكن فصل بعضها من بعض، ولا حذف شيء منها، فلو حذف منها جملة واحدة من أي موضع كان أدخل ذلك بالمعزى من التشبيه³.

أما إذا لم ترتب الجمل هذا الترتيب الذي يضم بعضها إلى بعض فليست من هذا اللون من التمثيل، كما إذا قلت: زيدٌ كالأسد بأساً، والبحر جوداً، والسيف مضاء، فإنه لا يجب الاحتفاظ في هذه التشبيهات بنظام مخصوص بل لو بدأت بالسيف، وتشبيهه به في المضاء، وأخرت تشبيهه بالأسد في الشجاعة، كان المعنى بحاله⁴.

● فصل في الأخذ والسراقات:

إنّضح أن السابقون لم يصدروا في معالجتهم للسراقات عن نظرية واضحة، وحينما ظهر عبد القاهر اتجه إلى فلسفتها وعرض لها في «أسرار البلاغة» وبدأ دراسة السراقات بقاعدة عامة فقال: «اعلم بأن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق واقتدى بمن تقدم وسبق لا يخلو من أن يكون في المعنى صريحاً أو في صيغة تتعلق بالعبارة»⁵ ولذلك تكلم أولاً على المعاني، وهي قسمان: عقلي وتخيلي، وكل واحد منهما يتنوع، فالذي هو العقلي على أنواع: أولها عقلي صحيح مجراه في الشعر والكتابة والبيان والخطابة مجرى الأدلة التي يستنبطها العقلاء والفوائد التي يثيرها الحكماء، ولذلك نجد الأكثر من هذا الجنس منتزعة من أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- وكلام الصحابة ومنقولاً من آثار السلف، أو نجد له أصلاً في الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء فقوله:

وما الحسب الموروث لا در دره بمحتسب إلا بآخر مكتسب⁶

¹ _ تَعْنُ: تكثر.

² _ يونس، 24.

³ _ أسرار البلاغة، ص 84.

⁴ _ المرجع نفسه.

⁵ _ المرجع السابق، ص 191.

⁶ _ المرجع السابق نفسه.

معنى صريح محض يشهد له العقل بالصحة ويعطيه من نفسه أكرم النسبة ويتفق العقلاء على الأخذ به والحكم بموجبه في كل جيل وأمة ويوجد له أصل في كل لسان ولغة. وقول المتنبي:

لا يسلم شرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

معنى معقول لم يزل العقلاء يقضون بصحته ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسنته، وبه جاهت أوامر الله سبحانه وعليه جرت الأحكام الشرعية والسنن النبوية وبه استقام لأهل الدين دينهم وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويضيرهم.

والتخييلي هو الذي لا يمكن أن يقال انه صدق وانه ما أثبتته ثابت وما نفاه منفي، وهو مفتن المذاهب كثير المسالك لا يكاد يخصر إلا تقريبا ولا يحاط به تقسيماً وتبويباً. ثم إنه يجيء طبقات ويأتي على درجات، فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحدق حتى أعطى شبهها من الحق وغشي رونقا من الصدق، ومثاله قول أبي تمام:

لا تنكري عطل الكريم من الغي فالسيل حب للمكان العالي

فهذا تخييل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفاً بالعلو والرفعة في قدره وكان الغني كالغيث في حاجة الخلق إليه وعظم نفعه، وجب بالقياس أن يزل عن الكريم زليل السيل عن الطود العظيم، ومعلوم أنه قياس تخييل وإبهام، لا تحصيل وإحكام، فالعلة في أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيال لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب وتمنعه عن الانسياب، وليس في الكريم والمال شيء من هذه الخلال.

وأقوى من هذا في أن يظن حقاً وصدقة وهو على التخييل قوله:

الشيب كره وكره أن يفارقني أعجب بشيء على البغضاء مودود

هو من حيث الظاهر صدق وحقيقة لأن الإنسان لا يعجبه أن يدركه الشيب فإذا هو أدركه كره أن يفارقه فراه لذلك ينكره ويتكرهه على إرادته أن يدوم له، إلا أننا إذا رجعنا إلى التحقيق كانت الكراهة والبغضاء لاحقة للشيب على الحقيقة، فأما كونه مراداً ومودوداً فيتخييل فيه وليس بالحق والصدق بل المودود الحياة والبقاء، إلا أنه لما كانت العادة جارية بأن في زوال رؤية

الإنسان الشيب زواله عن الدنيا وخروجه منها وكان العيش فيها محبة إلى النفوس صارت محبته لما لا يبقى له حتى يبقى الشيب كأنها محبة للشيب¹.

والنوع الأول من المعاني لا يحدث فيها توسع ولا اختلاف بين المنشئين، وإنما يحدث ذلك في الثاني الذي يعتمد على التخيل، قال وهو يتحدث عن قولهم: «خير الشعر أكذبه»: أن الصنعة إنما تمد باعها وتنشر شعاعها ويتسع ميدانها وتتفرع أفتانها حيث يعتمد الاتساع والتخيل ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل وحيث يقصد التلطف والتأويل ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم والوصف والنعمة والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض وهناك يجد الشاعر سبيلا إلى أن يمدح ويزيد ويبدع في اختراع الصور ويعيد ويصادف مضطرباً كيف شاء واسعة ومددا من المعاني متتابعاً ويكون كالمغترف من عد لا ينقطع والمستخرج من معدن لا ينتهي. وأما القبيل الأول² فهو فيه كالمقصود المداني قيده والذي لا تتسع كيف شاء يده وأيده³ ثم هو في الأكثر يسرد على السامعين معاني معروفة وصورة مشهورة⁴.

ودعاه هذا الكلام إلى الخوض في التخيل والتعليل التخيلي الذي سماه المتأخرون حسن التعليل، وتناسى التشبيه والاستعارة وادعاء الحقيقة في المجاز، ثم عاد إلى الأخذ والسرقة والاستعداد والاستعانة وقال: "وأن الشعارين إذا اتفقا لم يخل ذلك من أن يكون في الغرض على الجملة والعموم أو في وجه الدلالة على ذلك الغرض"⁵. ومعنى كلامه أن الاتفاق بين الشعارين على وجهين:

الأول: أن يكون الاتفاق بينهما في الغرض على العموم، وهذا لا يدخل في الأخذ والسرقة والاستعداد والاستعانة.

والثاني: أن يكون الاتفاق بينهما في وجه الدلالة على الغرض، قال:

¹ يُنظر؛ المرجع السابق، ص 192-194.

² يعني: «خير الشعر أصدق».

³ الأيد: المؤدة.

⁴ المرجع السابق، ص 197.

⁵ المرجع السابق، ص 242.

"وأما الاتفاق في وجه الدلالة على الغرض فيجب أن ينظر فإن كان مما اشترك الناس في معرفته وكان مستقراً في العقول والعادات فإن حكم ذلك وإن كان خصوصاً في المعنى حكم العموم، من ذلك التشبيه بالأسد في الشجاعة، وبالبحر في السخاء وبالبدر في النور والبهاء وبالصبح في الظهور والخلاء ونفي الالتباس عنه والخفاء، وكذلك قياس الواحد في خصلة من الخصال على المذكور بذلك والمشهور به والمشار إليه سواء كان ذلك ممن حضر في زمانك أو كان ممن سبق في الأزمنة الماضية والقرون الحالية لأن هذا مما لا يختص بمعرفته قوم دون قوم ولا يحتاج في العلم به إلى رويّة واستنباط وتدبر وتأمل وإنما هو في حكم الغرائز المركوزة في النفوس والقضايا التي وضع العلم بها في القلوب. وإن كان مما ينتهي إليه المتكلم بنظر وتدبر ويناله بطلب واجتهاد ولم يكن كالأول في حضوره إياه وكونه في حكم ما يقابله الذي لا معاناة عليه فيه ولا حاجة به إلى المحاولة والمزاولة والقياس والمباحثة والاستنباط والاستشارة بل كان من دونه حجاب يحتاج إلى خرقه بالنظر وعليه كم يفتقر إلى شقه بالتفكير وكان درأً في قعر بحر لا بد له من تكلف الغوص عليه وممتنعاً في شاق لا يناله إلا بتجشم الصعود إليه وكامنة كالنار في الزند لا يظهر حتى تقتدحه ومشابكاً لغيره كعروق الذهب التي لا تبدي صفحتها بالهوينى بل تنال بالحفر عنها وتعريق الجبين في طلب التمكن منها.

نعم إذا كان هذا شأنه وههنا مكانه وبهذا الشرط يكون إمكانه فهو الذي يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية وأن يجعل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر وأن الثاني زاد على الأول ونقص عنه وترقى إلى غاية أبعد من غايته أو انحط إلى منزلة هي دون منزلته¹.

وتحدث بعد ذلك عن المشترك والخاص من المعاني وحدد مفهومها بقوله: "واعلم أن ذلك الأول وهو المشترك العامي والظاهر الحلي والذي قلت إن التفاضل لا يدخله والتفاوت لا يصح فيه إنما يكون كذلك منه ما كان صريح ظاهرة لم تلحقه صنعة وساذجا لم يعمل فيه نقش. فأما إذا ركب عليه معنى ووصل به لطيفة ودخل إليه من باب الكناية والتعريض والرمز والتلويح فقد صار بما غير من طريقتة واستؤنف من صورته واستجد له من المعرض وكسي من

¹ _ المرجع السابق، ص 243.

دلّ التعرض داخلاً في قبيل الخاص الذي يتملك بالفكرة والتعمُّل ويتوصل إليه بالتدبر والتأمل¹،
وذلك كقولهم وهم يريدون التشبيه «سلبن الظباء العيون» كقول بعض العرب:

سلبن ظباء ذي نفر طلاها ونجل الأعين البقر الصوارا

وكقوله:

إنَّ السحابَ لتستحي إذا نظرت إلى نذاك فقاسته بما فيها

وكقوله:

واهتزَّ في ورق الندي فتحيرت حركات غصن البانة المتأود

وكقوله:

فأفضيت من قرب إلى ذي مهابة أقابل بدر الأفق حين أقابله

إلى مرف في الجود أنَّ حاتمًا لديه لأمسي حاتم وهو عاذله

قال معلقاً على هذه الأبيات: "فهذا كله في أصله ومغزاه وحقيقة معناه تشبيه ولكن كُنِّي لك عنه وخودعت فيه وأتيت به من طريق الخلافة في مسلك السحر ومذهب التخيل فصار لذلك غريب الشكل بديع الفن منيع الجانب لا يدين لكل أحد وأبي العطف لا يدين به إلا للمروي المجتهد وإذا حققت النظر فالخصوص الذي تراه والحالة التي تراها تنفي الاشتراك وتأباه إنما هما من أجل أنهم جعلوا التشبيه مدلولاً عليه بأمر آخر ليس هو من قبيل الظاهر المعروف بل هو في حد لحن القول والتعمية اللذين يتعمد فيهما إلى إخفاء المقصود حتى يصير المعلوم اضطراراً يعرف امتحاناً واختباراً كقوله:

مررت بباب هند فكلمتني فلا والله ما نطقت بحرف

فكما يوهمك باتفاق اللفظ أنه أراد الكلام وأن الميم موصولة باللام كذلك المشبه إذا قال: «سرقن الظباء العيون» فقد أوهم أن ثم سرقة وأن العيون منقولة إليها من الظباء وإن كنت تعلم إذا نظرت أنه يريد أن يقول إن عيونها كعيون الظباء في الحسن والهيئة وفترة النظر. وكذلك يوهمك بقوله: «إن السحاب لتستحيي» أن السحاب حي يعرف ويعقل وأنه يقيس فيضه

¹ _ المرجع السابق، ص 244.

بفيض كف الممدوح فيخزى ويخجل. فالاحتفال والصنعة في التصويرات التي تروق السامعين وتروعهم والتخييلات التي تهز الممدوحين وتحركهم وتفعل فعلا شبيه بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش أو بالنحت والنقر، فكما أن تلك تعجب وتخلب وتروق وتؤنق وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكان ولا يخفى شأنه... كذلك حكم الشعر"¹.

إن المعاني العامة المشتركة قد تكون خاصة إذا أخرجت بصورة غير صورتها الأولى عن طريق أساليب البيان المعروفة، وبذلك تصبح بديعة لما فيها من تخيل وتصوير، ومن نظم يختلف عما كان عليه الكلام، وقد أوضح هذا الاتجاه في كتابه "دلائل الإعجاز"، فقال: «وإنا لنراهم يقيسون الكلام في معنى المعارضة على الأعمال الصناعية كنسج الديباج وصوغ الشنف والسوار وأنواع ما يصاغ» ثم قال: "وليس يتصور مثل ذلك في الكلام لأنه لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى بيت من الشعر أو فصل من النثر فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصنعتة بعبارة أخرى حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لا يخالفه في صفة ولا وجه ولا أمر من الأمور، ولا يغرنك قول الناس: قد أتى بالمعني بعينه وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه، فإنه تسامح منهم والمراد أنه أدى الغرض فإما أن يؤدي المعني بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الأول حتى لا تعقل ههنا إلا ما عقلته هناك وحتى يكون حالهما في نفسك حال الصورتين المشتبهتين في عينك كالسوارين والشنفين ففي غاية الإحالة وظن يفضي بصاحبه إلى جهالة عظيمة"².

وتكلم على الاحتذاء فقال: "واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه أن يبتدئ الشاعر في معنى له وغرض أسلوباً-والاسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه- فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به في شعره. فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال قد احتذى على مثاله"³ وذلك مثل أن الفرزدق قال:

¹ _ المرجع السابق، ص 245.

² _ الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 201-202.

³ _ المرجع السابق، ص 361.

أترجو ربيعة أن تجيء صغارها بخير وقد أعيأ ربيعاً كبارها

واحتذاه البعيث فقال:

أترجو كليب أن تجيء حديثها بخير وقد أعيأ كليب قدميها

وهم لا يجعلون الشاعر محتذياً إلا بما يجعلونه به آخذة ومسترقاً، وأما أن يعمد إلى بيت شعر فيضع مكان كل لفظة لفظة، فذلك هو السلخ الذي يرذل فيه ويسخف المتعاطي له كأن يقول في بيت الحطيئة:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ذر المآثر لا تذهب لمطلبها واجلس فإنك انت الآكل اللابس

وما كان هذا سبيله كان بمعزل من أن يكون به اعتداد وأن يدخل في قبيل ما يفاضل فيه بين عبارتين، بل لا يصح أن يجعل ذلك عبارة ثانية ولا أن يجعل الذي يتعاطاه بمحل من يوصف بأنه أخذ معني. ذلك لأنه لا يكون بذلك صناعة شيئاً يستحق أن يدعي من أجله واضع كلام ومستأنف لسارة وقائل شعر. ذاك لان بيت الحطيئة لم يكن كلاماً وشعره من أجل معاني الألفاظ المفردة التي تراها فيه مجردة معراه من معاني النظم والتأليف، بل منها متوخي فيها ما ترى. ثم قال: "وجملة الأمر أنه كما لا تكون الفضة خاتمة أو الذهب سواراً أو غيرهما من أصناف الحلبي بأنفسهما ولكن بما يحدث فيهما من الصورة كذلك لا تكون الكلم المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف وكلاماً وشعراً من غير أن يحدث فيها النظم الذي حقيقته توخي معاني النحو وأحكامه، فإذاً ليس ممن يتصدى لما ذكرنا من أن يعمد إلى بيت فيضع مكان كل لفظة منها لفظة في معناها إلا أن يترك عقله ويستخف ويعد معد الذي حكى أنه قال:

يغشون حتى ما تهترُّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وقلت:

يغشون حتى ما نهر كلابهم أبداً ولا يسألون من ذا المقبل

فقيل هو بيت حسان ولكنك قد أفسدته"¹.

وجعل المعنى المتداول بين الآخذ والمأخوذ منه قسمين:

الأول: أن ترى فيه أحد الشعراء قد أتى بالمعنى غفلاً ساذجاً، وترى الآخر قد أخرجه في صورة تروق وتعجب، ويكون ذلك إما لأنّ متأخراً قصر عن متقدم، وإما لأن هدي متأخر لشيء لم يهتد إليه المتقدم.

ومثال ذلك قول المتنبي:

بئس الليالي سهرت من طربي شوقاً إلى من يبيت يرقدها

مع قول البحتري:

ليل يصادفني ومرهفة الحشا ضدين أسهره لها وتنامه

وقول البحتري:

ولو ملكت زماعاً ظل يجذبني قوداً لكان ندى كفيك من عقلي

مع قول المتنبي:

نفسى في هواك وقيدت محبةً ومن وجد الإحسان قيلاً تقيداً

وقول المتنبي:

إذا اعتل سيف الدولة اعتلت الأرض ومن فوقها واليأس والكرم المحض

مع قول البحتري:

ظللنا نعود الجود من وعكك الذي وجدت وقلنا اعتل عضو من المجد

والثاني: أن ترى كل واحد من الشعراء قد صنع في المعنى وصور، وهذا يدل على أن المعنى ينتقل من صورة إلى صورة.

¹ _ المرجع السابق، ص 273.

واهتم بهذا النوع باعتبار أن الأوّل ليس مجال دراسة البلاغيين لأنه أمر ظاهر، ولكن هذا القسم هو الميدان الذي يصل فيه البلاغي ليستخدم أدواته في الحكم على أي الصورتين أجمل من الأخرى ما دام المعنى واحداً.

ومثال ما في كل واحد من البيتين صنعة وتصوير قول لبيد:

وأكذبِ النفسَ إذا حدّثتها أن صدق النفس يزري بالأمل

مع قول نافع بن لقيط:

وإذا صدقت النفس لم تترك لها أملاً ويأمل ما اشتهى المكذوب

وقول رجل من الخوارج أوتي به الحجاج في جماعة من أصحاب قطري فقتلهم ومنّ عليه ليد كانت عنده وعاد إلى قطري فقال له قطري: «عاود قتال عدو الله الحجاج» فأبى وقال:

أأقاتل الحجاج عن سلطانه بيد تقرر بأنها مولاته

ماذا أقول إذا وقفت إزاءه في الصف واحتجت له فعلائه

وتحدث الأقبام أن صنائعاً غرست لدي فحفظت نخلاته

مع قول أبي تمام:

أسربل هجر القول من لو هجوته إذن لهجاني عنه معروفه عندي

وقول النابغة:

إذا ما غدا بالجيش حلق فوقه عصائب طير تهتدي بعصائب

جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الصفان أول غائب

مع قول أبي نواس:

وإذا مَجَّ القنا علقاً وتراءى الموت في صوره

راح في ثنبي مفاضته أسدٌ يدمي شبا ظفره¹

¹ _ المفاضة؛ الدرر الواسعة.

يتأبى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره¹

وقد روى المرزباني أن عمرو الوراق قال: رأيت أبا نواس ينشد قصيدته التي أولها: «أيها المنتاب من عفره» فحسدته فلما بلغ إلى قوله:

يتأبى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

قلت له ما تركت للنابعة شيئاً حيث يقول: «إذا ما غدا بالجيش...»

فقال: «اسكت فلتن كان سبق فما أسأت الاتباع» قال عبد القاهر معلقاً على هذه الرواية: «وهذا الكلام من أبي نواس دليل بيّن في أن المعنى ينقل من صورة إلى صورة، ذاك لأنه لو كان لا يكون قد صنع بالمعنى شيئاً لكان قوله: «فما أسأت الاتباع» محالاً، لأنه على كل حال لم يتبعه اللفظ. ثم إن الأمر ظاهر لمن نظر في أنه قد نقل المعنى عن صورته التي هو عليها في شعر النابعة إلى صورة أخرى وذلك أن ههنا معنيين: أحدهما: أصل وهو علم الطير بأن الممدوح إذا غزا عدواً كان الظفر له وكان هو الغالب.

والآخر: فرع وهو طمع الطير في أن تتسع عليها المطاعم من لحوم القتلى وقد عمد النابعة إلى الأصل الذي هو علم الطير بأن الممدوح يكون الغالب فذكره صريحاً وكشف عن وجهه واعتمد في الفرع الذي هو طمعها في لحوم القتلى وأنها لذلك تحلق فوقه على دلالة الفحوى، وعكس أبو نواس القصة فذكر الفرع الذي هو طمعها في لحوم القتلى صريحاً فقال كما ترى: «ثقة بالشبع من جزره» وعول في الأصل الذي هو علمها بأن الظفر يكون للممدوح على الفحوى، ودلالة الفحوى على علمها أن الظفر يكون للممدوح هي في أن قال: «من جزره» وهي لا تثق بأن شبعها يكون من جزر الممدوح حتى تعلم أن الظفر يكون له. أفيكون شيء أظهر من هذا في النقل عن صورة إلى صورة؟»

فالبيتان قد يكونان في معنى واحد ولكن يختلف أحدهما عن الآخر في صورته بخواص ومزايا وصفات كالخاتم والخاتم وكالشنف والشنف وكالسوار والسوار وسائر أصناف الحلبي التي يجمعها جنس واحد ثم يكون بينها الاختلاف الشديد في الصنعة والعمل. قال: «ومن هذا الذي ينظر إلى بيت الخارجي وبيت أبي تمام فلا يعلم أن صورة المعنى في ذلك غير صورته

¹ _ يتأبى؛ يتحرى ويرقب. وجزر الطير وجزر السباع هو اللحم الذي تأكله.

في هذا؟ كيف والخارجي يقول: «واحتجَّت له فعلاته» ويقول أبو تمام: «إذن لهجاني عنه معروفه عندي»، ومتى كان أحتج وهجا واحدة في المعنى؟ وكذلك الحكم في جميع ما ذكرنا، فليس يتصور في نفس عاقل أن يكون قول البحري:

وأحبُّ آفاقِ البلادِ إلى الفتى أرضٌ ينال بها كريمَ المطلبِ

وقول المتنبي: «وكل مكان ينبت العز طيبٌ» سواءً.

وخلص من ذلك إلى أن وضع قاعدة أساسية هي أن وللمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك، ولخص رأيه في الأخذ بقوله: «واعلم أنه لو كان المعنى في أحد البيتين يكون على هيئته وصفته في البيت الآخر وكان التالي من الشعارين يجيئك به معاداً على وجهه لم يحدث فيه شيئاً ولم يغير له صفة لكان قول العلماء في شاعر: «أنه أخذ المعنى من صاحبه فأحسن وأجاد» وفي آخر: أنه أساء وقصر لغواً من القول من حيث كان محالاً أن يحسن أو يسيء في شيء لا يصنع به شيئاً. وكذلك كأن يكون جعلهم البيت نظيراً للبيت ومناسباً له خطأ منهم لأنه محال أن يناسب الشيء نفسه وأن يكون نظيراً لنفسه. أمر ثالث وهو أنهم يقولون في واحد: «أنه أخذ المعنى فظهر أخذه؟ وفي آخر: «أنه أخذه فأخفى أخذه. ولو كان المعنى يكون معاداً على صورته وهيئته وكان الأخذ له من صاحبه لا يصنع شيئاً غير أن يبدل لفظاً مكان لفظ لكان الإخفاء فيه محالاً لأن اللفظ لا يخفي المعنى وإنما يخفيه إخراجه في صورة غير التي كان عليها. مثال ذلك أن القاضي أبا الحسن ذكر فيما ذكر فيه تناسب المعاني بيت أبي نواس:

خليت والحسن تأخذه تنتقي منه وتنتخبُ

وبيت عبد الله بن مصعب:

كأنك جئت محتكماً عليهم تخيّر في الأبوة ما تشاء

وذكر أنهما معا من بيت بشار:

خلقت على ما في غير مخيّر هواي ولو خيرت كنت المهذباً

والأمر في تناسب هذه الثلاثة ظاهر. ثم إنه ذكر أن أبا تمام قد تناوله فأخفاه وقال:

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

ومن العجب في ذلك ما تراه إذا أنت تأملت قول أبي العتاهية:

جزى البخيل عليّ صالحه عني لخفته على ظهري
أعلى وأكرم عن يديه يدي فعلت ونزّه قدره قدرتي
ورزقت من جدواه عافيةً ألا يضيق بشكره صدري
وغنيت خلواً من تفضله أحنو عليه بأحسن العذر
ما فاتني خيرٌ امرئٍ وضعت عني يداهُ مؤونة الشكر

ثم نظرت إلى قول الذي يقول:

أعتقني سوء ما صنعت من الرق فيا بردها عليّ كبدي
فصرت عبداً للسوء فيك وما أحسن سوء قبلي إلى أحدٍ

ومما هو في غاية الندرة من هذا الباب ما صنعه الجاحظ بقول نصيب: «ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق» حين نثره فقال وكتب به إلى ابن الزيات: «نحن أعزك الله نسحر بالبيان ونموه بالقول والناس ينظرون إلى الحال ويقضون بالعيان. فأثر في أمرنا أثراً ينطق إذا سكتنا فإن المدّعي بغير بينة متعرض للتكذيب»

لقد ربط عبد القاهر السرقات بنظرية النظم، ولذلك لم يحكم على السرقة بالمعاني العامة أو بالألفاظ وإنما بترتيب الكلام وإخراجه في صورة جديدة، وأن بيت الشعر لو غيرت كلماته ووضعت وضعا آخر سقطت نسبته إلى الشاعر، قال: "فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عد كيف جاء واتفق وأبطلت نشده ونظامه الذي عليه بني وفيه أفرغ المعنى وأجرى وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو أن تقول في: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»: منزل قفا ذكرى من نبك حبيب، أخرجته من كمال البيان إلى مجال الهديان نعم وأسقطت نسبته من صاحبه وقطعت الرحم بينه وبين منشئه

بل أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل ونسب يختص له بمتكلم¹. وذكر أيضا أن إضافة الشعر إلى صاحبه ليس في الألفاظ بل في النظم قال: «اعلم أننا إذا أضفنا الشعر أو غير الشعر من ضروب الكلام إلى قائله لم تكن إضافتنا له من حيث هو كالم وأوضاع لغة ولكن من حيث توحي فيها النظم الذي بينا أنه عبارة عن توحي معاني النحو في معاني الكلم وذلك أن من شأن الإضافة الاختصاص فهي تتناول الشيء من الجهة التي تختص منها بالمضاف إليه. فإذا قلت: «غلام زيد» تناولت الإضافة الغلام من الجهة التي يختص منها بزيد وهو كونه مملوكا وإذا كان الأمر كذلك فينبغي لنا أن ننظر في الجهة التي يختص منها الشعر بقائله وإذا نظرنا وجدناه يختص به من جهة توحيه في معاني الكلم التي ألفه منها ما توخاه من معاني النحو ورأينا أنفس الكلم بمعزل عن الاختصاص ورأينا حالها معه حال الإبريسم مع الذي ينسج منه الديقاج وحال الفضة والذهب مع من يصوغ منهما الحلبي، فكما لا يشتبه الأمر في أن الديقاج لا يختص بناسجه من حيث الأبريسم والحلي بصائغها من حيث الفضة والذهب ولكن من جهة العمل والصنعة كذلك ينبغي أن لا يشتبه أن الشعر لا يختص بقائله من جهة أنفس الكلم وأوضاع اللغة» وهو بذلك يربط ربطة وثيقة بين نظريته وموضوع السرقات وهو ما لم يحمّ حوله أحد من السابقين. ولولا هذا الغرض، ولولا تمسكه بما يثير التخيل من صور جديدة لما بحث هذا الموضوع لأنه لا يؤمن بالسرقات التي تحدث عنها السابقون لأن لكل شاعر أسلوبه وطريقته في التعبير، ولو أخذ البلاغيون والنقاد بهذا الرأي لما أسرفوا في الحديث عن سرقات الشعراء وتوسعوا في القول لأن المعاني العامة المشتركة أكثر من المعاني الخاصة المبتكرة، وإنما العمدة في الصياغة والتصوير والتعبير عن المعاني بأساليب جديدة.

وكان عبد القاهر آخر من صدر في معالجة مشكلة السرقة والأخذ عن فلسفة ثابتة وفكرة واضحة، لأن الذين جاءوا من بعده لم يستفيدوا مما أثاره لابتعادهم عن نظرية النظم التي التزم بها وبنى عليها آراءه في البلاغة والنقد. فأسامة بن منقذ «ت584 هـ» عقد فصولا مختلفة في كتابه «البديع في نقد الشعر»، وبين المقبول من السرقات وغير المقبول ووقف عند سرقات المتنبي من أرسطو. وعقد بابا في «الحل والعقد»². وفصل ضياء الدين بن الأثير «ت137 هـ»

¹ _ أسرار البلاغة

² _ أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص197.

في «المثل السائر» و«الجامع الكبير» و«الاستدراك» البحث في السرقات واتباع منهجا فيه تحديد وحصر وعرض وتحليل، وإن كان يرى أنه ليس من سبيل إلى معرفة السرقات والوقوف عليها إلا بحفظ الأشعار الكثيرة التي لا يحصرها عدد، قال: «فمن رام الأخذ بنواحيها والاشتمال على قواصيها بأن يتصفح الأشعار تصفحاً ويقتنع بتأملها ناظراً»¹. وكان ما كتبه خاتمة البحوث النقدية في السرقات وإن لم يلتزم في دراستها بنظرية كما فعل عبد القاهر.

واحتضرت المواهب وكادت تموت بعد ابن الأثير وانصرف البلاغيون والنقاد إلى العبث والتفلسف في البحث وحشر ما لا يمت بصلة إلى البلاغة والنقد إمعانا في التعقيد والتقييد فأخرجوها عن أهدافها الأدبية. وكان نصيب السرقات كنصيب فنون الأدب الأخرى فأصابها الجمود وصارت قواعد لا تغني كثيرة، وألحقها الخطيب القزويني «ت739 هـ» بالبديع، فهو بعد أن انتهى من بحث فنونه قال إن له ملحقات ينبغي إهمالها وملحقات لا مانع من ذكرها وهي القول في السرقات الشعرية وما يتصل بها، والقول في الابتداء والتخلص والانتهاء. وهذا اتجاه جديد في دراسة السرقات، لأن المتقدمين تكلموا عليها مع فنون البلاغة والنقد الأخرى، وإن كان لا يقدم ما ينفذ وينير السبيل.

● فصل في الحقيقة والمجاز:

عرّف عبد القاهر الحقيقة في المفرد بأنها كل كلمة أُريدَ بها ما وقعت له في وضع واضح، وإن شئت قلت: في مواضعه -وقوعاً لا يستندُ فيه إلى غيره².

مثال ذلك كلمة «الأسد»، تريد به «السبع»، فإنك قد أردت به ما وضعه الواضع لهذه الكلمة، وهو الحيوان المفترس، ولا يحتاج أن يتصور له معنى أصلي ينتقل منه إلى السبع من أجل صلة تجمع بينهما³.

¹ _ المرجع نفسه، ص 197.

² _ المرجع السابق، ص 250.

³ _ المرجع السابق، ص 250-251.

وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها، لملاحظة بين الثاني والأول، وإن شئت قلت: كل كلمة جرت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له؛ الملاحظة بين ما تجوز بها إليه، وبين أصلها، الذي وضعت له في وضع واضعها¹.

مثال ذلك كلمة «الأسد» تريد به رجلاً شبيهاً بالأسد، فأنت تجوز بهذه الكلمة ما وضعت له الكلمة، وهو الحيوان المفترس، إلى ما لم توضع له، وهو الرجل الشجاع، لملاحظة صفة تجمع بين المراد بها الآن، وهو الرجل الشجاع، وما وضعت له الكلمة، وهو الحيوان المفترس، وتلك الملاحظة هي الشجاعة التي تجمع بينهما.

ولعبد القاهر فصلٌ مطولٌ جميلٌ، فَرَّقَ فيه بين المجاز العقلي والمجاز اللغوي حَلَصَ منه إلى أنه ينبغي أن تعلم أن من حَقَّك إذا أردت أن تقضى في الجملة مجاز أو حقيقة أن تنظر إليها من جهتين:

أحدهما: أن تنظر إلى ما وقع بها من الإثبات، أهو في حقه وموضعه؟ أم قد زال عن الموضوع الذي ينبغي أن يكون فيه؟

والثانية: أن تنظر إلى المعنى المثبت، أعني ما وقع عليه الإثبات، كالحياة في قولك: أحيا الله زيداً، أثبت هو على الحقيقة، أم قد عدل به عنها؟

فمثال ما دخله المجاز من جهة الإثبات دون المثبت قول الشاعر:

أشاب الصغير، وأفني الكبير كُرَّ العَدَاةِ ومُرَّ العَشِيِّ

المجاز واقع في إثبات الشيب فعلاً لكَرَّ الليالي، وهو الذي أذيل عن موضعه الذي ينبغي أن يكون فيه؛ لأن من حق هذا الإثبات ألا يكون إلا مع أسماء الله تعالى.

وأما المثبت فلم يقع فيه مجاز؛ لأنه الشيب: وهو موجود. ومثال ما دخل المجاز في مثبته دون إثباته قوله عز وجل: {أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا، فَأَحْيَيْنَاهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} ²، فالمعنى على أن جعل العلم والهدى والحكمة حياة للقلوب.

¹ _ المرجع السابق، ص 251.

² _ الأنعام، 122.

ومن الواضح في ذلك قوله تعالى: { فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا }¹، جعل خضرة الأرض ونضرتها ما يظهره الله تعالى فيها من النبات والأزهار حياة لها، فكان ذلك مجازاً في المثلث، من حيث جعل ما ليس بحياة حياة على التشبيه، فأما نفس الإثبات فحقيقة²؛ لأن الذي فعل ذلك هو الله.

وقد يتصور أن يدخل المجاز للجمل من الطرفين جميعاً، وذلك أن يشبه معنى بمعنى، وصفة بصفة، فيستعار لهذه اسم تلك؛ ثم تثبت فعلاً لما لا يصح الفعل منه؛ فيكون في كل واحد من الإثبات والمثلث مجاز، كما في قول المتنبي:

وتحيي له المال الصوارم والقنا ويقتل ما يحيي التسم والجدا³

جعل الزيادة والوفور حياة في المال، وتفريقه في العطاء قتلاً؛ ثم أثبت الحياة فعلاً للصوارم، والقتل فعلاً للتسم، مع العلم بأن الفعل لا يصح منهما⁴.

فإذا كان المجاز في الإثبات، لزم ألا يحصل إلا بالجمل التي هي تأليف بين حديث ومحدث عنه، وكان المرجع فيه إلى العقل المحض، وأنه القاضي فيه دون اللغة؛ لأن اللغة لم تأت، لتحكم بحكم، أو لتثبت وتنفي، وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب، هو اعتراض على المتكلم، وليس للغة في ذلك مدخل في قليل ولا كثير.

أما إذا كان المجاز في المثلث كقول تعالى: { فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ } فإنما كان مأخذه اللغة؛ لأن طريقه أن أجرى اسم الحياة على ما ليس بحياة، تشبيهاً وتمثيلاً؛ واللغة هي التي اقتضت أن تكون الحياة اسماً للصفة التي هي ضد الموت؛ فإذا تُجَوِّزَ في الاسم، فأجرى على غيرها فالحديث مع اللغة⁵.

والأول هو المجاز العقلي، وهو كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأول، كقول البحري:

¹ _ فاطر، 9.

² _ أسرار البلاغة، ص 264.

³ _ الجدا، العطاء.

⁴ _ المرجع السابق نفسه.

⁵ _ المرجع السابق، ص 265.

فصاعٌ ما صاعٌ من تيرٍ، ومن ورقٍ وحاكٌ ما حاكٌ: من وشيٍ وديباجٍ¹

وفاعل هذه الأفعال في البيت ضمير يعود إلى الربيع؛ فقد أثبت الصوغ للربيع، وذلك خارج عن موضعه من العقل، لأن إثبات الفعل لغير الله لا يصح عند العقل، إلا أن ذلك على سبيل التأؤل، وعلى العرف الجاري بين الناس، أن يجعلوا الشيء إذا كان سبباً أو كالسبب في وجود الفعل - كأنه فاعل؛ فلما أجرى الله سبحانه العادة أن تورق الأشجار، وتظهر الأنوار، وتلبس الأرض ثوب شبابها في زمان الربيع، صار يتوهم في ظاهر الأمر كأن لوجود هذه الأشياء حاجة إلى الربيع؛ فأسند الفعل إليه على هذا التأويل².

ولا يجوز الحكم على الجملة بأنها مجاز إلا بأحد أمرين: إما أن يكون الشيء الذي أثبت له الفعل مما يصح أن يكون لها تأثير في وجود المعنى الذي أثبت له، وذلك نحو قول الرجل: «محببتك جاءت بي إليك»؛ فهذا ما لا يشتهه على أحد أنه مجاز؛ لأن المحبة لا يعقل أن تجيء بإنسان.

وأما أنه يكون قد علم من اعتقاد المتكلم أنه لا يثبت الفعل إلا لله³.

ويرى عبد القاهر أن الإيمان بهذا اللون من المجاز ضروري لرجل الدين، وأن من يقدر فيه، ويصفه بغير الصدق يخبط خبطاً عظيماً، ويطيل عبد القاهر في هذا الحديث⁴.

أما المجاز الذي مأخذه اللغة فهو المجاز اللغوي، وهو مفعول من جاز الشيء يجوزته إذا تعداه؛ وإذا عدل باللفظ عما يوجبها أصل اللغة، وصف بأنه مجاز، على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً⁵.

فإذا استخدمت «الأسد» في الرجل الشجاع، فقد عدلت باللفظ عما هو موضوع له في أصل اللغة، وجازت الكلمة مكانها الذي وضعت فيه أولاً، وهو الحيوان المفترس ...

¹ _ المرجع السابق، ص 270. والتبر: الذهب. والورق: الفضة. والوشي: نقش الثوب. والديباج: الثوب الحريري.

² _ المرجع السابق، ص 270-273.

³ _ المرجع السابق، ص 274-275.

⁴ _ المرجع السابق، ص 276.

⁵ _ المرجع السابق، ص 279.

ويشترط عبد القاهرة لهذا النقل شرطاً، هو أن يقع النَّقْلُ على وجهٍ لا يعرى معه من ملاحظة الأصل؛ ومعنى الملاحظة أن يكون هناك سبب يصل المجاز بالحقيقة، نحو أن «اليد» تقع للنعمة، وأصلها الجارحة؛ لأن الاعتبار اللغوية تتبع أحوال المخلوقين وعاداتهم، ومن شأن النعمة أن تصدر عن اليد؛ وكذلك الحكم إذا أريد باليد القوة والقدرة، لأن القدرة أكثر ما يظهر سلطانها في اليد، وبها يتكون البطش، والأخذ، والدفع، والمنع، والجذب، والضرب، والقطع، وغير ذلك من الأفاعيل، ولذلك تجدهم لا يريدون باليد شيئاً لا ملابسة بينه وبين هذه الجارحة بوجه¹.

والمجاز اللغوي أعمّ من الاستعارة، وكل استعارة مجاز لغوي، وليس كل مجاز لغوي استعارة، لأن الاستعارة نقل الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه على حد المبالغة².

أما المجاز اللغوي فمنه الاستعارة المبنية على التشبيه، ومنه ما لا يبنى على التشبيه، كما رأينا عندما أطلقنا اليد على النعمة أو القدرة، أو عندما نطلق على المزايدة³: راوية، وهي اسم للبعير الذي يحملها، لما بين الظهر الحامل وبين المحمول من صلة به أو نسمي الرجل عينا، إذا كان طليعة الجيش، لما بين الجزء والكل من صلة، أو نسمي النبات غيثاً؛ لأن الغيث سبب النبات، والمطر سماء، لأنها مكانه⁴.

وكان عبد القاهر يشير إلى ضرورة وجود سبب قوي يدفع إلى استعمال هذا المجاز، إذ يقول: «فالعين لما كانت المقصودة في كون الرجل ربيئة⁵ صارت كأنها الشخص كله؛ إذ كان لولا هداها لا يعي شيئاً مع فقدها؛ والغيث لما كان النبات يكون عنه صار كأنه هو؛ والمطر لما كان ينزل من السماء عبروا عنه باسمها⁶.

¹ _ المرجع السابق نفسه.

² _ المرجع السابق، ص 281.

³ _ المزايدة: القرية.

⁴ _ المرجع السابق، ص 280.

⁵ _ الربيئة: طليعة الجيش.

⁶ _ المرجع السابق نفسه.

فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة، كقولنا: اليد مجاز في النعمة، والأسد مجاز في الإنسان، كان حكماً من طريق اللغة؛ لأننا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وضعت له ابتداءً في اللغة، وأوقعها على غير ذلك إما تشبيهاً، وإما الملازمة وصلة بين ما نقلها إليه، وما نقلها عنه.

ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة، وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل، لا يصح ردها إلى اللغة؛ لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم، أو اسم إلى اسم، وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم؛ فلا يصير «ضرب» خبراً عن «زيد» بوضع اللغة، بل بمن قصد إثبات الضرب فعلاً له¹.

والعقل هو الذي يدرك إن كان هذا الإثبات حقيقة أو مجازاً. والأول هو المجاز اللغوي، والثاني هو المجاز العقلي.

والمجاز اللغوي إن كان مبنيًا على التشبيه فهو استعارة، وإن لم يكن مبنيًا على التشبيه فهو المجاز المرسل، أي الذي لا يقيد بقيد.

ويطيل عبد القاهر في الحديث عن الفروق بين هذه الألوان².

نُوجّه النَّظْرَ إلى أن عبد القاهر لم يسمّ ألوان المجاز بهذه الأسماء التي ذكرناها ولكنه شرح حقيقتها، وبين دلالتها، وربما أشار إلى المجاز المرسل إشارة عابرة، في أثناء حديثه عن الحقيقة والمجاز.

ولكن عبد القاهر سمّى المجاز العقلي: مجازاً حكمياً، في كتابه: دلائل الإعجاز، وإذا كنا نأخذ عليه أنه لم يبين أسرار الجمال في التعبير بالمجاز المرسل مع إيمانه بأنه أبلغ من الحقيقة، فإنه وقف أمام المجاز العقلي «الحكمي» يبين أسرار جماله.

فبعد أن عرّف هذا المجاز بأن التجوّز فيه يكون في حكم يجري على الكلمة فقط، وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها، ويكون معناها مقصوراً في نفسه ومراداً، كقولهم: «نهارك صائم،

¹ _ المرجع السابق، ص 287.

² _ راجع؛ المرجع السابق، ص 260-290.

وليلك قائم». وقوله تعالى: { فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ }¹؛ فأنت لم تجوّز في نفس «صائم وقائم»، ولكن في أن جعلتهما خبرين عن النهار والليل، وكذلك ليس المجاز في الآية في لفظة «ربحت» نفسها، ولكن في إسنادها إلى التجارة. وكل الكلمات قد أُريد به معناه الذي وضع له على وجهه وحقيقته، فلم يرد بصائم غير الصوم، ولا بقائم غير القيام، ولا بربحت غير الربح. بعد أن وضع معالم هذا المجاز ذكر أن من شأنه أن يفخم به المعنى، وتحدث فيه النباهة، فليس يشتبه على عاقل أن ليس حال المعنى في قوله: «نام ليلي»، كحاله إذا أنت تركت المجاز، وقلت: «فنمت في ليلي». وهل يخفى مكان العلوّ.

وموضع المزيّة بين قوله تعالى: { فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } وبين أن يقال: «فما ربحوا في تجارتهم».

وإن أردت أن تزداد للأمر تبييناً فانظر إلى بيت الفرزدق:

يحمي إذا اختُرتِ السيوفُ نساءنا ضربتُ تطيرُ له السّواعدُ أرعل²

وإلى رونقه ومائه، وإلى ما عليه من الطلاوة، ثم ارجع إلى الذي هو الحقيقة، وقل: «نحمي إذا اختُرتِ السيوفُ نساءنا بضرب تطير له السواعد أرعل» ثم أسبر حالك، هل ترى مما كنت تراه شيئاً.

وبين عبد القاهر قيمة هذا المجاز، فهو «كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ، في الإبداع والإحسان، والاتساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً، وأن يضعه بعيد المرام، قريباً من الأفهام به».

ولكن عبد القاهر يرى بعض أمثلة هذا المجاز مبتدلاً سوقياً كقول الرجل: أتى بي الشوق إلى رؤيتك، وأقدمني بلدك حقّ لي على إنسان، وأشبه ذلك، مما تجده لسعة شهرته يجري مجرى الحقيقة التي لا يشكل أمرها، فلا يحجبه ذلك عن مقدار هذا المجاز وقيمتها، بل يرى

¹ _ البقرة، 16.

² _ اخترت السيوف: استلّه. أرعل: من رعل النبات، فهو أرعل: إذا تهدّلت أغصانه، أي أن الضرب يقطع اللحم، فيدعه مدلى.

أنه ليس كذلك أبداً، بل يدق ويلطف. حتى يتمتع مثله إلا على الشاعر المفلق، والكاتب البليغ، وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها، والنادرة تأنق لها.

ولا يضعف من شأن هذا المجاز الحكمي وجود هذه الأمثلة العامية، ففي الاستعارة والتمثيل ما هو عاميٌ كذلك.

ولكن الذي يسترعي النظر أن عبد القاهر جعل المجاز العقلي ضربين: أحدهما، أن يكون للفعل فاعل في التقدير، إذا أنت نقلت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة، مثل أنك تقول في «ربحت تجارتهم» ربحت تجارتهم.

وثانيهما: ألا يمكنك أن تثبت للفعل في قول الشاعر:

وصيرني هواك وبى لِحيني¹ يُضرب المثل

فاعلاً قد نقل عنه الفعل، فجعل للهوى.

فإنه إذا لم يكن للفعل فاعل سوى هذا المذكور، فكيف يكون في الجملة مجاز عقلي؟ ولعل حديث عبد القاهر هنا عن الفاعل الظاهر، وإنما جعله مجازاً عقلياً، لأن الفاعل الحقيقي هو الله، كما شرح ذلك في «أسرار البلاغة».

نظرية النظم عند الجرجاني:

اهتم معظم العلماء المتقدمين على العلامة عبد القاهر الجرجاني بمصطلح النظم وخاصة الذين شغلوا بلاغة القرآن وبيان إعجازه، فدرسوا البلاغة والبيان لمعرفة وفهم الإعجاز القرآني، فألفوا كتباً عديدة تحمل في عناوينها كلمة "النظم" إلا أن هذا المصطلح البلاغي لم تكن له دلالة خاصة إلا في القرن الخامس هجري على "يد عبد القاهر الجرجاني" الذي فصل القول في نظرية النظم وأقام لها أسسها وأركانها².

تعريف النظم:

¹ _ الحين: الهلاك والمحنة.

² _ حمادو نبيلة، الجهود البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني أركان نظرية النظم - أنموذجاً-، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر، المركز الجامعي بلحاج بوشعيب - عين تموشنت - معهد الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي 1437هـ- 2017م، ص12.

في اللغة: ورد في معجم العين: "نظم"؛ "النظم نظمك خرزا بعضه إلى بعض في نظام واحد وهي في كل شيء حتى قيل: ليس لأمره نظام أي لا تستقيم طريقته. والنظام كل خيط ينظم به لؤلؤ أو غيره فهز نظام"¹. أي جمع الأشياء ووضعها في نظام واحد.

وفي صحاح العربية: "نظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر ونظمته"². تدل معاني "نظم" على الترتيب والجمع، وفي لسان العرب: "النظم التأليف نظمه ينظمه، تنظما ونظاما، نظمه فانتظم ومنتظم، نظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك والتنظيم مثله ومن نظمت الشعر ونظمته"³. تدل هذه المعاني على الاتساق فيما بينها والترتيب بين أجزائها. **اصطلاحا:** عرفه الزمخشري أنه: "حسن التأليف وجودة التركيب وحسن الوصف"⁴ أي أن يكون التأليف جيد وذو جودة مع وصف صحيح.

والنظم عند فخر الدين الرازي هو: "خلوص الكلام من التعقيد، وأصله من الفصيح وهو اللبن الذي أخذت منه الرغوة"⁵، بمعنى أن يكون الكلام صحيح بعيد عن التعقيد والغموض. أما تعريفه عند عبد القاهر الجرجاني: "هو تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض"⁶.

وفي تعريف آخر يقول: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيع عنها وتحفظ الرسوم

¹ _ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق؛ مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مكتبة الهلال، ج8، ص165.

² _ الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق؛ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط3، 1403هـ-1984م، ص2041.

³ _ ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ج14، مادة نَظَمَ، ص196.

⁴ _ الزمخشري، أساس البلاغة، وشرح غريبه وعلق عليه، محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت-لبنان، ط1، 2003، ص360.

⁵ _ فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق وتعليق؛ نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر-بيروت، ط1، 1424هـ-2004م، ص31.

⁶ _ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق؛ محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص81.

التي رسمت لك فلا تخلى بشيء منها"¹. في هذا التعريف بيّن عبد القادر أن النظم هو وضع الكلام في مكانه مع احترام حركاته الأعرابية وموقعه في الجملة.

بذل النحاة وعلماء الإعجاز جهود جبارة في إبراز جوهر " نظرية النظم " بدءاً من سيبويه ومروراً بمن جاء بعده في القرن الرابع الهجري، حيث بلغت الدراسات اللغوية أوجها مما ساهم في إرساء القواعد اللغوية التي أدت إلى تأسيسها كنظرية للفكر اللغوي العربي.

- سيبويه «ت 180م»: تحدث عن معنى " النظم " في كتابه وهو ما يسميه ائتلاف الكلام. وجعل مدار الكلام على تأليف العبارة وعلاقة الألفاظ بعضها البعض، ويرى أن وضع الألفاظ في مواضعها دليل على حسن ائتلاف الكلام، ووضعها في غير موضعها دليل على فسادها وقال عنه أنه باب الاستقامة من الكلام فمنه ما هو مستقيم حسن منه ما هو قبيح، وكذب ومحال فالمستقيم الحسن هو أن تمنع اللفظ في موضعه والمستقيم القبيح هو أن تضع اللفظ في غير موقعه لم يشير سيبويه إلى مصطلح النظم ولكنه لمح له بكلمة الاستقامة².

- الجاحظ «ت 255 م»: يعد الجاحظ من أهم الذين كتبوا في الإعجاز القرآني في القرن الثالث الهجري، فكانت له مؤلفات ورسائل عديدة تناول فيها معجزة القرآن الكريم حيث فرق بين نظم الكلام ونظم القرآن ولم يشير إلى مصطلح "النظم وإنما يدل عليه فذكر «التلاحم، السبك والإفراغ» من المصطلحات التي يسهل فهمها كما في قوله: " وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"³.

- الرماني «ت 386 م»: تحدث في رسالته «النكت في إعجاز القرآن» عن الإعجاز القرآني و قسم البلاغة إلى عشرة أقسام هي: «الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل،

¹ _ المرجع نفسه، ص 81.

² _ ينظر سيبويه، الكتاب، تحقيق ونشر، عبد السلام هارون، دار القلم، القاهرة، 1966، ج 1، ص 18.

³ _ أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق؛ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخفاجي-القاهرة، ج 1، ص 67.

التجانس، التصريف التضمين، المبالغة، وحسن البيان»¹ قدم شرح لكل باب بتقديم الأدلة والشواهد، وأثناء حديثه عن الإعجاز القرآني قسم البلاغة إلى ثلاثة أقسام وجعل بلاغة القرآن في الرتبة الأولى لأنها معجزة من الله تعالى قال في ذلك: فأما البلاغة فهي ثلاث طبقات، منها ما هو في أعلى طبقة وأدق طبقة، فما كان في أعلى طبقة معجزاً ألا وبلاغة القرآن وما كان من دون ذلك ممكن للتناص منهم الشعراء والمتكلمين في الرتبة الثانية أما المرتبة الثالثة فهي لعامة الناس.²

إن كلام الرماني عن النظم طرحه في باب «التلاؤم» الذي يعني بانسجام الحروف في الكلمة.

- الباقلائي «ت 403 هـ»: جمع آراء من سبقوه في إعجاز القرآن للتأكيد أن القرآن معجز بنظمه كونه خارجاً عن المؤلف، فقد اشتمل على كل الأساليب البلاغية التي يبني عليها الكلام ويرى أن إعجاز القرآن راجع إلى نظمه فهو يرفض فكرة الإعجاز البلاغي الذي يتعرض للتحليل الجزئي للعبارة من خلال البحث عن أنواع البيان والبديع، كما أنه لا يؤمن بفصاحة الألفاظ وحدها لأن الإعجاز عنده ليس في نفس الحروف وإنماء نظمها وإحكام رصفها، ويظهر من مؤلفات الباقلائي أنه يفهم النظم بمعنى تأليف العبارة وبناء النص.³

اللفظ والمعنى:

اعتني عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم القائمة على توخي معاني النحو وحسن الصياغة من خلال العلاقة التي تنشأ بين اللفظ والمعنى، فبعض الباحثين كانوا يفصلون بين اللفظ

¹ _ الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق؛ محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، كورنيش-النييل-القاهرة، 1119، ط3، ص76.

² _ حمادو نبيلة، الجهود البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني أركان نظرية النظم - أنموذجا، ص17.

³ _ ينظر، الباقلائي، إعجاز القرآن، تحقيق: محمد عبد المنعم، دار الجبل-بيروت، 2005، ص42.

والمعنى وهذا ما رآه عبد القاهر أنه أساء إلى الدرس الأدبي بعد أن أهمل المعنى في دراسة الظاهرة اللغوية، لذلك ربط بين اللفظ والمعنى.

اللفظ:

أعاد الجرجاني النظر في قضية اللفظ والمعنى والألفاظ عنده شيء رمز للمعاني المفردة فهو يرى أن معرفة مدلول اللفظ يأتي أولاً، ثم اللفظ الذي يدل عليه ثانياً فالألفاظ عنده في سمات للمعاني ولا يتصور أن تسبق الألفاظ معانيها كأن تضع أسماء ثم تذكر معانيها، وعليه فالمعاني تزايد، وهذا التزايد معلق بالألفاظ، والربط بين اللفظ والمعنى عن طريق احترام قواعد النحو¹.

ويبين عبد القاهر أن ليس للألفاظ وهي مفردة عن التعبير وإنما مزينها بتوخي نظم معين من الكلام وإذا كانت الألفاظ مجتمعة فإنها تحدد لكل لفظة دورها وهي لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف وتنبت لها الفضيلة في أداء المعنى.

والألفاظ تكون فصيحة في موضع وغير قصيدة في موضع آخر وهذا ما يوضحه الجرجاني بقوله: " فإننا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضوع ونراها بعينها فما لا يحصى من المواضيع وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير²: أي أن فصاحة الكلام تكون حسب موضعها من الكلام.

ويبين عبد القاهر أن الألفاظ إذا لم تكن مرتبة ومنظمة حسب المعنى الذي يقتضيه القائل لا تكون صحيحة يقول في ذلك: والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ويُعمد بها إلى وجهٍ دون وجهٍ من التركيب والترتيب"³. أي أنك إذا قلت كلاماً وغيرت نظمه فإن معناه سيتغير ويصبح يدل على معنى آخر.

أما عن استحسان اللفظ فيقول إنه يستحق المزية إذا كان حسن تلاؤم حالات اللفظ مع حالات الألفاظ المجاورة لها في العلم وذلك حسب ترتيب المعاني في النفس وتناسق دلالتها

¹ _ يُنظر؛ درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة، مصر-القاهرة، 1960م، ص51.

² _ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص34.

³ _ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص10.

مع اعتبار حال المنظوم بعضه مع بعض يقول عبد القاهر: "فلو كانت الكلمة إذا حسنت، حسنت من حيث هي لفظة، وإذا استحقت الحرية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن"¹. بمعنى أنه لا بد لنا أن نحسن أداء الألفاظ لتكون لها المزية ويصبح نظمها صحيح له معنى وعليه فإن صفة الفصاحة عنده تدرك بالسمع لأن الألفاظ أو اللفظة تكون فصيحة في موضوع وغير فصيحة في مواضيع كثيرة وهذه الصفة تكتسبها من المعاني خاصة عندما تكون الألفاظ منظومة داخل نظم من التعبير².

المعنى عند عبد القاهر الجرجاني:

تقوم نظرية النظم على أساس المعاني إذ لا قيمة للألفاظ المفردة عند الجرجاني حتى تكون تابعة لمعاني لتكون جملاً وعبارات صحيحة، وأن الفصاحة والبلاغة راجعة إلى المعاني وإلى ما تدل عليه الألفاظ³.

فالكلام عند عبد القاهر ينقسم إلى نوعين: نوع تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده مثال ذلك: «خرج زيد» هو إخبار على أن زيد خرج. أما النوع الثاني: نوع لا يصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكنه يدل على معناه، وذلك المعنى لديه دلالة ثانية يصل بها إلى الغرض ويعطي عبد القاهر أمثلة حول الكناية والاستعارة.

مثال الكناية قولنا «عن كثير رماد القدر» أنه رجل كثير الضيافة.

إن المعاني الإضافية عند الجرجاني هي أساس جمال الكلام وإليها ترجع الفضيلة لأنها تعطي للنص جمال. ويوضح أننا نرتب المعاني أولاً في أنفسنا ثم نرتبها في النطق⁴.

¹ _ وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية، دار الفكر-دمشق، ط1، 1403هـ-1982م، ص121.

² _ المرجع السابق نفسه.

³ _ يُنظر؛ أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص108.

⁴ _ يُنظر؛ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص262.

ثم بين الفرق بين نظم الحروف ونظم الكلم فالفرق الكائن بينهما هو أن نظم الحروف يكمن في تواليها في النطق وليس نظمه ضروريا للمعنى فلو قال واضح اللغة "ريض" مكان "ضرب" لما كان هناك شيء يؤدي إلى الفساد.

أما نظم الكلم فليس كذلك، لأنه يتطلب آثار المعاني، وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس فهو نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض فلا معنى للفظة تعزلها عن دلالتها. تتعدد أنواع المعاني عند العديد من العلماء إلا أن عبد القاهر الجرجاني لا يهتم كثيرا بنوعية هذه المعاني لأنه يهيمه صياغة هذه المعاني في بنية لغوية وظيفية للتعبير عن الغرض من الكلام. كما أنه أوضح أن البلاغة لا تنحصر في نوع من الاستعارة أو التشبيه لأنه لا يدخلها في خصائص الكلام، فهو ينكر أن يكون للمعنى فضل على اللفظ خاصة إذا كان هناك معنى دون صياغة صحيحة.

سعى عبد القاهر الجرجاني إلى إثبات بلاغة الكلام أنها تكون في النظم وبلاغة الكلام لا ترجع إلى الألفاظ وحدها وإنما إلى المعاني وإلى العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى. فهو قد جمع اللفظ والمعنى ورفض الفصل بينهما.

أسس نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني:

استفاد عبد القاهر الجرجاني من آراء السابقين وأهم ما ألف في كتب الإعجاز لتوضيح نظرية النظم من أجل فهم الإعجاز القرآني، ففكرة النظم عنده في مجموع آرائه اللغوية والبلاغية، حيث تقوم عملية التركيب اللغوي عند عبد القاهر على ما يلي:

1- الترتيب: تكمن الميزة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني في المعنى وذلك لما تحدثه الألفاظ إذا كانت مولعة على ضرب خاص ومرتبة ترتيبا معلوما وفق ما يكون على قصد المتكلم. فالنظم هو ترتيب معاني الألفاظ في النفس يقول في ذلك: "وأن الكلم ترتيب في النطق يسبب ترتيب معانيها في النفس"¹، وذلك حينما يريد المتكلم أن يصدر كلاما فإنه يرتبه في نفسه ثم ينطقه.

¹ _ وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية، ص122.

والترتيب عند الجرجاني هو وضع للرموز المنطوقة أو المكتوبة في السياق الكلامي مع مراعاة فوائد التقديم والتأخير الذي اعتنى بهما عناية كبيرة واعتبره عنصرا مهما في نظرية النظم لمعرفة الكلام الحسن، ومثل له بقول الفرزدق:

وما مثله في الناس لا يملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه¹

في هذا المثال هناك أربع مخالفات نحوية وهي: تقديم المستثنى على المستثنى منه والأصل أنه يتقدم المستثنى منه ثم يأتي المستثنى وفصل بين البدل والمبدل منه في مثل وحي، وبين أبوه وأمه وأبوه وهما مبتدأ وخبر وبين النعت والمنعوت في حي ويقاربه². في هذه الحالات لا يجب أن يفصل بينهما فاصل لتكون القاعدة صحيحة.

وعلق عبد القاهر على هذا البيت الشعري وأوضح أن سبب غموضه لا يرجع إلى المعنى في البيت بل إلى الشاعر الذي لم يرتب الألفاظ في النطق على حسب ترتيب معانيها في التنفس ويورد مثالا آخر لامرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

إذا قرأنا شطر هذا البيت كما هو موجود فإنه مرتب ترتيبا صحيحا أما إذا غيرنا نظام بعض كلماته كقولنا: "منزل قفا ذكرى من نبك حبيب" فإن معناه يتغير بسبب تغير أماكن الكلمات. يوضح السيد أحمد خليل في كتابه المدخل إلى دراسة البلاغة العربية إلى أن الجرجاني قد أشار إلى "أصل من أهم أصول الوحدة المنطقية، فقسم للعقل مكان في العمل الفني وجعله هاديا لوحدة النسق في ترتيبه على سورة تتلاءم وقوى الإنسان العاقلة والمتذوقة. جعل الجرجاني للعقل مكانا في الإبداع الفني لترتيب الكلام على صورة تتلاءم وقدرة الإنسان.

¹ _ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص22.

² يُنظر؛ عبود خليفة، علاقة الدرس النحوي بالدرس البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، رسالة ماجستير في البلاغة والنقد، جامعة أبي بكر بلقايد-تلمسان، كلية الآداب واللغات، 1430هـ-2009م، ص157.

2-الموقع: يتحقق النظم عند عبد القاهر بترتيب المعاني في النفس والعلم بمواقعها يقول في ذلك: " وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم مواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"¹، أي لا بد من معرفة مواقع المعاني في النفس والألفاظ الدالة عليها حتى إذا غير كان تعبيره صحيحاً وكل لفظ يكون في موقعه.

3-التعليق: يتم التعليق بواسطة القرائن اللفظية أو القوانين المعنوية والخالية أي أن عملية البناء اللغوي عند الجرجاني تخضع للقوانين اللغوية فهو يعتبر التعليق أساس النظم فيقول: "معلوم أن النظم ليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض فالنظم عنده هو مرتبط بالتعليق فيما بين معاني الألفاظ وأن يكون اتساق الألفاظ وترتيبها بحسب معانيها في النفس.

4-الصياغة: يوضح الجرجاني هذا العنصر في كتابه «دلائل الإعجاز» بقوله: " ترى الرجل قد اهتدى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التَّخْيُر والتدبر في أنفاس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه له وترتيبه إياها إلى ما لم يهتدي إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في تواخيها معان النحو ووجوهه التي علمت انها محصول النظم"².

جعل عبد القاهر التصوير والصياغة هما سبيل الكلام وحسن الصياغة دلالة على حسن الصورة الأدبية.

أولاً: التقديم والتأخير:

إن موضوع التقديم والتأخير من المواضيع الأساسية في علم البلاغة العربية فهو ركن من الأركان التي يقوم عليها علم المعاني لأنه يهتم بالمتكلم والمخاطب والمقام الذي يلقي فيه الحديث وهذه هي أهم العناصر التي يهتم بها علم المعاني من أجل إيصال المعنى من المتكلم إلى المخاطب صحيحاً وخالياً من التعقيد.

¹ _ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص44.

² _ وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسة اللغوية، ص137.

تناول هذا المبحث العديد من النحويين في دراستهم لأنه خاصة من خصائص اللغة العربية من بينهم الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي قيل عنه أنه يستفتح أن يقول «قائم زيد» أي أنه في هذا المثال لما يريد أن يكون التقديم على نية جعله مبتدأ بل يكون التقديم على نية التأخير¹.

وكذلك ما أوضحه ابن جني في التقديم والتأخير ما يجوز تقديمه وما لا يجوز تقديمه نحوياً واكتفى بذكر المفعول به والفاعل يقول في فصل التقديم والتأخير وذلك على ضربين. أحدهما ما يقبله القياس والآخر ما يسهله الاضطرار، الأول كتقديم المفعول على الفاعل تارة نحو: «ضرب زيدا عمرو» و«زيدا ضرب عمرو» وكذلك الظرف نحو: «قام عندك زيد» و«عندك قام زيد» والحال في قوله: جاء ضاحكا زيد «ضاحكا جاء زيد» تناول النحاة موضوع التقديم والتأخير لكنهم لم يركزوا على الهدف الحسن وراء التقديم والتأخير لأنهم تناولوه في عرضهم للقواعد النحوية.

أما الإمام عبد القاهر الجرجاني فيرى أن الاختلاف في طرق الكلام عديدة تحتاج إلى البحث عنها داخل نظام الجملة. وهذا حيث تحدث عن التقديم والتأخير مع الاستفهام والنفي².

والخبر والمسند والمسند إليه في تقديمه وتأخيره يقول في ذلك: "هو باب كثير الفوائد واسع، التصرف جم المحاسن بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بدیعة ويفضي بك إلى لطيفة ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ثم ينظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ من مكان إلى مكان"³ هذا يدل على أننا نستطيع التعبير بأساليب كثيرة منها النفي والإثبات والتعجب والاستفهام والتقديم والتأخير يكون سببه علة لغوية يقتضيها ترتيب معاني الكلام لأن كل صورة في الذهن تدل على معنى خاص والتقديم يعطي معانٍ جديدة وذلك بتحويل اللفظ من مكان إلى مكان آخر.

¹ _ حمادو نبيلة، الجهود البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني أركان نظرية النظم-أنموذجا، ص27.

² _ يُنظر؛ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص104-105.

³ _ المصدر السابق، ص105.

ويذكر الجرجاني أن سببويه لم يذكر في التقاسم غير العناية والاهتمام في حين تعرض للفاعل والمفعول به يقول: "إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بيانه أعنى وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم، من غير أن يضرب على ذلك مثالا"¹.

يرى الجرجاني أن سببويه تطرق لموضوع التقديم والتأخير دون أن يتوسع في معاني هذا الأسلوب ولم يفصل في مواضع العناية والاهتمام.

يشير عبد القاهر الجرجاني إلى أن العناية والاهتمام هي من العناصر المهمة في هذا المبحث يقول في ذلك: "وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال إنه قدم للعناية ولأن ذكره أهم من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية؟ وبما كان أهم ولتَحْيَلِهِمْ ذلك قد صغروا أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وأوهنوا الخطب فيه حتى أنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف"².

يبين عبد القاهر أهمية العناية والاهتمام وبأن العرب قد صغروا من قيمة التقديم والتأخير لأنهم رأوا فيه نوعاً من التكلف.

وما يلاحظ عند الجرجاني أن ليس كل تقديم وتأخير يكون سببه العناية والاهتمام فهو يرى أنه من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين، فيكون مفيد في بعض الكلام وغير مفيد في بعضه ذلك لأنه من المحال أن تكون جملة النظم تارة ما يدل ولا يدل كتقديم المفعول مثلاً على الفعل في كثير من الكلام أنه اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير³ وبعد أن انتهى الجرجاني من توضيح معني التقديم والتأخير وما يتخللها من مسائل نحوية في تركيب الكلام أرجع ذلك إلى طريقة النظم.

النظم في المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية عند الجرجاني:

قد رأينا تطبيقاً لفكرة النظم التي أتعب عبد القاهر نفسه فيها على الكلام عندما يجيء على نحو خاص من الصياغة، فيه تقديم أو تأخير، أو ذكر أو حذف، أو نحو ذلك، وأن البلاغة

¹ _ المصدر السابق، ص 107.

² _ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 107.

³ _ حمادو نبيلة، الجهود البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني أركان نظرية النظم—أنموذجا، ص 29.

إنما هي في صلة المعاني بعضها ببعض، لا في الألفاظ نفسها؛ وهنا يبين عبد القاهر أن الحكم في هذه الأبواب من مجاز، وتشبيه وغيرهما يجري على هذا النسق أيضاً، فنظمها، وصلة المعاني بعضها ببعض مصدر بلاغتها، كما سيرهن عبد القاهر.

وقد رأينا ألا نقف عند عرضه لفكرة النظم في هذه الأبواب وحدها، ثم نعود إلى دراستها، بل سوف نلّم بما جاء به عبد القاهر في هذه الأبواب من دراسة في كتابيه: "دلائل الإعجاز"، "وأسرار البلاغة".

وقد درس عبد القاهر هذه الأبواب دراسة موازنة، فيها كثير من الاعتماد على مشاعر النفس، وإن لم يغفل التحديد والتقسيم، ولكي يبرهن على أن العبرة في هذه الأبواب إنما هي بالمعنى لا باللفظ، وإن جرت الصفات على اللفظ، ولذلك اشتد الوهم عند الناس، وبعد عنهم كل البعد أن يكون المقصود هو المعنى.

ذلك أن العادة قد جرت بأن يقال في الفرق بين الحقيقة والمجاز: أن الحقيقة أن يقر اللفظ على أصله في اللغة، والمجاز أن يزال عن موضعه، ويستعمل في غير ما وضع له، فيقال: أسد، ويراد به: شجاع؛ وبحر، ويراد به: جواد¹.

فأنت تراهم يصفون اللفظ بأن يبقى على أصله، أو يزال عن موضعه، وقد استحکم في نفوس الناس أن المراد في ذلك هو اللفظ، وتمكن ذلك في قلوب الخاصة والعامة، مع أن الأمر في ذلك على خلافه.

ويفصل عبد القاهر هذا بأننا إذا حققنا لم نجد لفظ أسد قد استعمل على القطع والبت في غير ما موضع له، ذاك؛ لأنه لم يجعل في معنى شجاع على الإطلاق، ولكن جعل الرجل بشجاعته أسداً، فالتجوز في أن ادعيت للرجل أنه في معنى الأسد، وأنه كأنه هو في قوة قلبه، وشدة بطشه، وفي أن الخوف لا يخامر قلبه؛ وهذا تجوّز منك في معنى اللفظ، لا اللفظ².

¹ _ الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 280.

² _ نفس المرجع.

ويدل على ذلك دلالة قاطعة أنهم لا يذكرون شيئاً من المجاز إلا قالوا: إنه أبلغ من الحقيقة، فإذا كان لفظ أسد، قد نقل عما وضع له في اللغة، وجعل يراد به الشجاع، فمن أين يجب أن يكون قولنا: أسد، أبلغ من قولنا: شجاع¹.

فاللفظ إذا باق على معناه، وإنما التجوز في ادعاء أن الرجل صار في معنى الأسد. وكذلك الحكم في الاستعارة، فهي وإن كانت في الظاهر من صفة اللفظ، إذ تقول: هذه لفظه مستعارة، وقد استعير له اسم الأسد، فإن حقيقة الأمر أن القصد بها إلى المعنى: ويدلك على ذلك أننا نقول: جعله أسداً، وجعله بحراً، معنى أنه أثبت له صفة الأسد وصفة البحر². وجمال الاستعارة يعود إلى ما توخّي في جملتها من نظم، وما توخّي في وضع الكلام من ترتيبه على نحو خاص، وخذ لذلك مثلاً قول الشاعر:

سألت عليه شعاب الحيّ حين دَعَا أنصاره بوجوه كالدنانير

قال عبد القاهر: «فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن، وانتهى إلى حيث انتهى، بما توخّي في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد ملّحت ولطفت بمعاونة ذلك، ومؤازرته لها. وإن شككت فاعمد إلى الجازين والظرف، فأزل كلا منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه، فقل: سألت شعاب الحيّ، بوجوه كالدنانير، عليه، حين دعا أنصاره؛ ثم انظر كيف يكون الحال، وكيف يذهب الحسن والحلاوة، وكيف تعدم أريحيته التي كانت، وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها؟³

وهكذا يبدو أن الاستعارة تكون في المعنى، وأن بلاغتها راجعة إلى نظم عبارتها، وما بين المعاني من الارتباط، وأن الحسن والقبح لا يكونان فيها إلا من جهة المعاني خاصة، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب».

¹ _ المرجع السابق، ص 281.

² _ المرجع السابق نفسه.

³ _ المرجع السابق، ص 78.

وكذلك القول في التشبيه؛ لأن التشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتستفتي فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان».

ومعنى ذلك أن مجال التشبيه إنما هو عقد صلة بين أمرين، وإدراك هذه الصلة من شأن العقل، فالجمال والقبح ينشئان من وثاقة الصلة بين الأمرين، أو وهن هذه الصلة، وكلما اشتدت الوثاقة، كان حظ التشبيه من الجمال وافرأ، وكلما وهنت الصلة ضعف ذلك الحظ أو انمحي في التشبيه.

وهكذا الأمر في الكناية يعود الأمر فيها إلى المعنى لا إلى اللفظ، فحقيقة الكناية أن تثبت معنى أنت تصل إليه من طريق العقل دون طريق اللفظ، فإنك لما سمعت قولهم: هو كثير رماد القدر، وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسك، فقلت: أنه كلام قد جاء في المدح، ولا معنى للسدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أنه تنصب له القدور الكثيرة، ويطبخ فيه للقرى والضيافة، وذلك لأنه إذا كثر الطبخ في القدور كثر إحراق الحطب تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة.

وهكذا السبيل في كل ما كان كناية، فليس من لفظ الشعر عرفت أن ابن هرمة أراد بقوله: ولا أبتاع إلا قريبة الأجل. التمدح بأنه مضياف، ولكنك عرفت ذلك بالفكر والتأمل بأن علمت أنه لا معنى للتمدح بظاهر ما تدل عليه العبارة: من قرب أجل ما يشتريه، فطلبت له هدفاً، فعلمت أنه أراد أنه يشتري ما يشتريه للأضياف، فإذا اشترى شاة أو بعيراً، كان قد اشترى ما قد دنا أجله؛ لأنه يذبح وينحر عن قرب.

وهكذا سلم لعبد القاهر فكرته: من أن البلاغة تعود إلى المعاني، وأن النظم مظهر هذه البلاغة.

وبعد، فالكلمة تنقسم إلى حقيقة أو مجاز، وقد سبق تعريفهما، وشرح عبد القاهر لهذا التعريف.

ويعود عبد القاهر إلى تعريفهما في كتاب " أسرار البلاغة ": فيعرف الحقيقة بأنها كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح، وإن شئت قلت: في مواضعه، ونوعاً لا يستند فيه إلى غيره.

مثال ذلك قولك: «الأسد» تريد به السبع؛ فهي كلمة أريد بها ما حدده الواضع لها، وهو غير مستند في هذا إلى شيء غير السبع؛ أي أنه لا يحتاج أن يتصور له أصل توصلنا به إلى السبع، من أجل التباس بينهما وملاحظة».

وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول، وإن شئت قلت: كل كلمة جرت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له، لملاحظة بين ما تجوز بها إليه، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز. مثال ذلك كلمة «الأسد» في قولك: «رأيت أسداً» تريد رجلاً شبيهاً بالأسد. فكلمة «الأسد» مجاز؛ لأننا ننتقل فيها، ونجتاز بها المعنى الذي وضعه الواضع وهو الحيوان المفترس إلى ما لم يوضع له، وهو الرجل الشجاع الباسل، لأننا نلاحظ صلة بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذي وضعت له، وهي الشجاعة.

ثم إنّه يحسن بنا في ختام كلامنا عن نظرية النظم أن نسرّد طائفةً من القوانين الضابطة للنظرية، وهذه القوانين تلخيص مناسب لمبادئها وأحكامها بإذن الله تعالى:

1. الإعجاز هو أعلى مراتب البلاغة والفصاحة، ومرجعه إلى النظم.
2. النظم هو وضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو وقوانينه وأحكامه، ولا يمكن أن يخرج عن ذلك.
3. كل تغيير في المبني يؤدي إلى تغيير في المعنى، ولا تستوي العبارتان المختلفتان أدنى اختلاف.
4. النظم هو اختيار أنسب مقال لكل حال وسيق، عملاً بمبدأ (لكل مقام مقال).
5. فصاحة الكلمة ينظر فيها إلى سياقها وما يجاورها من الكلمات.
6. ترتيب المعاني سابق على ترتيب الألفاظ. وترتيب الألفاظ في الذكر يتبع ترتيب معانيها في الذهن.

7. مقاصد المتكلم وحال السامع مما يتحكم في النظم.
8. الجناس والطباق وسائر المحسنات اللفظية تابعة للنظم ولا تستقل بجمالها عنه وينبغي أن يستدعيها المعنى ولا تفرض فرضا متعسفا.
9. العبرة في النظم ليست بالألفاظ بل بالمعاني.
10. الكلمات إنما جعلت ليؤلف فيما بينها ويعلق بعضها ببعض، ولم تجعل لتبقى معزولة لأنها لا تؤدي الغرض منها آنئذ.
11. ليست العبرة في النظم بالمعنى العام أو أصل المعنى، لكن العبرة بالمعنى الخاص أو المعنى المصور الذي يختص به من أبدعه وجاء به، فيكون أحق به.
12. لم توضع الأسماء لتعرفنا بحقيقة المسميات في ذاتها ولكن وضعت لتكون علامات عليها تميزها فيسهل الإخبار بها أو عنها.
13. الاستعارة وسائر أنواع المجاز ليست بمعزل عن النظم بل هي داخله فيه بحيث يستوعبها ولا تستوعبه.
14. نظم الكلام شبيه بالتصوير والنسج وصوغ الخُلْيِّ، من حيث إن العبرة فيه بإتقان التفاصيل وحسن المواءمة بين الأجزاء.
15. النظم الفني نظم يجمع بين الابتكار والتجديد، والدقة والتناسب، والقوة والإقناع، والعدوبة والرشاقة، والتلميح والإيحاء إنه باختصار مزج موفق بين الإقناع والإمتاع.

خاتمة

تناولت هذه الدراسة التعريف بعبد القاهر الجرجاني، وبكتابه "أسرار البلاغة". وقد ألفت الدراسة الضوء على أهم الظواهر البلاغية في كتابه "الأسرار" من تجنيس واستعارة وتشبيه وتمثيل وغيرها...، وأن عبد القاهر طَوَّرَ نظرية النظم، والتي أكد من خلالها أنها الأصل في الإعجاز، وحاول في كلِّ حينٍ أن يُبيِّن ما بينها وبين النحو من ارتباطٍ وثيقٍ. ونظرة عبد القاهر إلى النحو نقلت هذا العلم من الاهتمام بأواخر الكلمات إلى جَوِّ رحب يفيض حركة وحياء، وقد استطاع بهذه النظرة الدقيقة أن يشرح فكرة النظم التي كانت سائدة في بيئات المعتزلة والأشاعرة حينما تعرضوا لإعجاز القرآن. ولم يكن النظم عنده إلا تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض أو توخي معاني النحو وسلوك مذاهبه، وهو الأساس الذي يقوم عليه الأدب الرفيع والتفاوت بين الأساليب. ولكي يبرهن على ما ذهب إليه أعاد القول وشرح وفصّل ليثبت نظريته ويقنع المعارضين ويزيل ما علق في نفوسهم من شك وارتياب.

وقد وُفِّقَ في إرساء أُسسِ نظريته وأقام عليها تصوره البلاغي كله ونظر إلى كتاب الله واللفظ والمعنى والتصوير الأدبي من خلالها، وجمع بين البناء والتركيب والصياغة والتصوير والجمال في فكرة واحدة هي النظم التي عالج بها ثنائية اللفظ والمعنى وقضى على ما كان في كتب البلاغة والنقد من مناقشات عنيفة وتعصب عقيم لا يخدم الأدب ولا يحقق غاية الدارسين.

قائمة المصادر والمراجع

● قائمة المصادر:

1. ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان.
2. أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، (ت562هـ)، الانسان، تحقيق وتعليق؛ عبد الرحمان بن يحيى المعلمي اليماني، بيروت، ط3، 1980م.
3. أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليماني (ت768هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، بيروت، مؤسسة الأعلمي، مطبعة المعارف النظامية، ط1، 1417هـ-1997م.
4. أبي القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي (ت427هـ)، تاريخ جرجان أو كتاب معرفة علماء أهل جرجان، ط1، 1369هـ-1950م، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن الهند.
5. أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق؛ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخفاجي-القاهرة.
6. الباقلائي، إعجاز القرآن، تحقيق: محمد عبد المنعم، دار الجبل-بيروت، 2005م.
7. جلال الدين عبد الرحمان أبي بكر السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق؛ محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر-دار الفكر، ط2، 1979م.
8. جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت646هـ)، أنباه الرواة، ط1، 1424هـ، المكتبة العنصرية، بيروت.
9. الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق؛ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط3، 1403هـ-1984م.
10. الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق؛ مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مكتبة الهلال.
11. خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت-دار العلم للملايين، ط1، 1984م.

قائمة المصادر والمراجع

12. الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق؛ محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، كورنيش-النيل-القاهرة، 1119، ط3.
13. الزمخشري، أساس البلاغة، وشرح غريبه وعلق عليه، محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت-لبنان، ط1، 2003م.
14. سيويه، الكتاب، تحقيق ونشر، عبد السلام هارون، دار القلم، القاهرة، 1966م.
15. شمس الدين أحمد بن أبي بكر البرمكي، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، القاهرة، ط1، 1970م.
16. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت-مؤسسة الرسالة، ط1، 1992م.
17. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق؛ ميسر عقاد ومصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت-لبنان، ط1، 1428هـ-2007م.
18. عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية في إعجاز القرآن الكريم، تحقيق؛ محمود محمد شاكر، دار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع.
19. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق؛ محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.
20. فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق وتعليق؛ نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر-بيروت، ط1، 1424هـ-2004م.
21. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، بيروت-دار المعارف، ط1.
22. ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (ت626هـ)، معجم الأدباء، مصر-مكتبة عيسى البابي الحلبي، مطبعة دار المأمون.

● قائمة المراجع:

23. أحمد أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مكتبة مصر.
24. أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، ط1، 1393هـ-1973م، بيروت.
25. جرجي زيدان، تاريخ الأدب العربي، بيروت، منشورات دار مكتبة بيروت، ط1، 1983م.
26. درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة، مصر-القاهرة، 1960م.
27. عبد السلام محمد هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ط7، 1418هـ-1998م، مكتبة الخانجي-القاهرة.
28. محمد محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، ط2، 1418هـ-1997م، مكتبة وهبة-القاهرة.
29. محمد محمد أبو موسى، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ط1، 1418هـ-1998م، مكتبة وهبة.
30. موسوعة 1000 مدينة إسلامية، ط1، 1421هـ-2000م، الوراق للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.
31. وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية، دار الفكر-دمشق، ط1، 1403هـ-1982م.

● دراسات سابقة:

32. حمادو نبيلة، الجهود البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني أركان نظرية النظم -أمودجا- ، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير، المركز الجامعي بلحاج بوشعيب -عين تموشنت- معهد الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي 1437هـ-2017م.

قائمة المصادر والمراجع

33. رحاب صالح الطاهر عبد الرحمان، الشواهد القرآنية البلاغية في كتاب دلائل الإعجاز، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه في التفسير، جامعة الخرطوم، كلية الأدب، قسم الدراسات الإسلامية سبتمبر 2005.
34. عبد الله قريم ساكت السرحان، مصادر الجرجاني النقدية دراسة في كتاب أسرار البلاغة، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك-الأردن قسم الآداب، قسم اللغة العربية، 2003م.
35. هند جميل صالح نايته، مصادر الإمام عبد القاهر في بلاغته، بحث مقدّم لنيل درجة الماجستير في علوم البلاغة، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، 1407هـ.

فهرس الموضوعات

المحتويات

.....	شُطْرٌ وَتَهْدِيرٌ
1.....	مُقَدِّمَةٌ
4.....	المبحث الأول: حياة المؤلف.
4.....	المطلب الأول: نشأته ونسبُهُ.
8.....	المطلب الثاني: مشايخه وتلامذته.
8.....	أولاً: مشايخه.
10.....	ثانياً: تلامذته.
12.....	المطلب الثالث: مؤلفاته ووفاته.
12.....	أولاً: مؤلفاته.
20.....	ثانياً: وفاته.
21.....	المبحث الثاني: دراسة عن كتاب المؤلف.
21.....	أولاً: التعريف بالكتاب.
24.....	ثانياً: القيمة العلمية للكتاب.
25.....	المطلب الثاني: منهجه في الكتاب وطريقة العرض التي سار عليها فيه.
37.....	المطلب الثالث: مصادره في الكتاب وأهم الملاحظات والمآخذ عليه.
37.....	أولاً: مصادر عبد القاهر في كتابه "الأسرار".
48.....	ثانياً: أهم الملاحظات والمآخذ على الكتاب.
49.....	المبحث الثالث: تلخيص كتاب "أسرار البلاغة".
50.....	● فصل في التنجيس:
53.....	● فصل في الاستعارة:
59.....	● الفرق بين التشبيه والتمثيل والاستعارة:
62.....	● فصل في التمثيل:
70.....	● فصل في التشبيه.
73.....	● فصل في الأخذ والسراقات:
86.....	● فصل في الحقيقة والمجاز:
93.....	نظرية النظم عند الجرجاني:
93.....	تعريف النظم:
96.....	اللفظ والمعنى:

98.....	المعنى عند عبد القاهر الجرجاني:
99.....	أسس نظرة النظم عند عبد القاهر الجرجاني:
103.....	النظم في المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية عند الجرجاني:
109	خاتمة
110	قائمة المصادر والمراجع
114	فهرس الموضوعات